

تأليف

العلامة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي

المكتب الاسلامي

الطبعة الاولى ١٣٨٩ - ١٩٦٩

الطبعة الثانية ١٣٩٤ - ١٩٧٤



المكتب الاسلامي للطباعة والنشر { ص.ب ٣٧٧١ - برقيا (إسلاميا) / هاتف : ٢٨٥٨٢٧ - ٢٨٥٩٦٤ } بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

ان الحمد لله ، نحمده ونستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور انفسنا ، وسيئات أعمالنا • من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له • وأشهد أن محمدا عبده ورسوله •

أما بعد

فهذه صفحات مختارة ، حوت الفوائد الجليلة من كلام استاذنا العلامة المفضال الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدى - عليه رحمة الله - جرى افرادها من كتابه القيم « تفسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن » رأيت استخراجها ، وطبعها مفردة (١) بعد مذاكرة مع الوجيه الحجازى الجليل الشيخ محمد نصيف ، ذكرت فيها مؤلفات ابن سعدى وما فيها من فوائد يستعين بها الناس على فهم كتاب الله ، ويتوسلون بها الى استخراج مكنونه •

وكتاب « تيسير العزيز المنان » هو اختصار لتفسيره القيم الجليل « تيسير الكريم الرحمن » الذى قدر الله طبعه وانتفاع الناس به ، بعد هذا المختصر •

ولعل من المفيد ان نذكر السمة التي تميز كتابه المذكور باقتباس ما يأتي من مقدمته :

(١) وهي الصفحات ١ - ١١ و ٦٥ - ٦٩ و ١٧١ - ٢٠٣ •

« ان القـــرآن العظيـم ليس كغـــيره مـــن الكتب في الترتيب والتبويب، لأنه بلغ في البلاغة نهايتها، وفي الحسن غايته ، وفي الاسلوب البديع والتأثير العجيب ما هــو اكبر الأدلة على أنه كلام الله وتنزيل من حكيم حميد •

فتجده في آية واحدة يجمع بين الوسائل والمقاصد ، وبين العلوم الدينية والدنيوية والأخروية ، وبين الأغراض المتعددة والمقاصد النافعة ، ويعيد المعاني على العباد ، ليتم علمهـم ، وتكمل هدايتهم ، ويستقيم سيرهم على الصراط المستقيم • علما وعملا •

فالوقوف على تفسير بعض القرآن يعين أعظم عون عـــلى معرفة باقيه ، والله جعله مثاني تثنى فيــه العلوم النــافعة ، والمعاني الجليلة الكاملة ، وهذا من تيسيره تعالى لكتابه، قال تعالى : « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر » •

وقد كتبت لورثة المؤلف مستأذنا طبع هـــذه المختارات ، فكتب الي الاخ المكرم الشيخ عبد الله نجـــل المؤلف نيابة عنهم محبذين وشاكرين بالموافقــة على ذلـــك • جزاهم الله خيرا وأثابه •

والله أسأل أن ينفعك يا أخي القارئ بهــذه الفوائد ، وان يتغمد مؤلفها بالرحمة الواسعة ، وأن يحسن مثوبة ورثة المؤلف على مساعدتهم بنشر تراث والدهم العظيم •

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين •

بيروت زهـير الشـاويش

ترجمة المؤلف

عبد الرحمن بن ناصر السعدي

هو أستاذنا الجليل أبو عبدالله عبد الرحمن بن ناصر بن عبدالله ابن ناصر آل سعدي . من قبيلة تميم. ولد في بلدة عنيزة بالقصيم، وحفظ القرآن مبكراً، وجلس للتدريس وهو في الثالثة والعشرين.

أخذ الحديث عن الشيخ ابراهيم بن حمد الجاسر، وقرأ الفقه وعلوم العربية على الشيخ محمد بن عبدالكريم الشبل، وأفاد من ملازمة الشيخ صالح بن عثمان القاضي، والشيخ علي الناصر أبي واداي، وقد قرأ الحديث على الأخير وأخذ عنه الأمهات الست وغيرها، وأجازه في ذلك .

وتلقى على استاذنا العلامة الشيخ محمد بن عبدالعزيز بن مانع المتوفى سنة ١٣٨٥ رحمه الله، وأفاد من علمه الغزير . وكان مما قاله فيه الشيخ ابن مانع : « عالم عصرنا ، وعلامة مصرنا » . وهي شهادة قيمة من استاذه الجليل رحمهما الله.

أما استاذنا المفضال الشيخ عبدالرزاق عفيفي عميد معهد القضاء

العالي فقد قال في المصنف: « ... فإن العلماء في هذا العصر كثير، ولكن قلّ منهم من يستقي الحكم من منبعه، ويسنده الى أصله، ويتبع القول العمل، ويتحرى الصواب في كل ما يأتي ويذر، وان من ذلك القليل فيما أعتقد الشيخ الجليل عبد الرحمن بن ناصر ابن سعدي رحمه الله، فان من قرأ مصنفاته، وتتبع مؤلفاته، وخالطه، وسبر حاله أيام حياته، عرف منه الدأب في خدمة العلم اطلاعاً وتعليماً، ووقف منه على حسن السيرة وسماحة الخلق واستقامة الحال، وانصاف إخوانه وطلابه من نفسه، وطلب السلامة فيما يجر الى شر أو يفضي الى نزاع أو شقاق، فرحمه الله تعالى رحمة واسعة ».

وكان أعظم اشتغاله وانتفاعه بكتب شيخ الاسلام ابن تيمية عليهم رحمة الله جميعاً. ولذا جاء ما كتبه في التفسير وغيره ورداً لا ينضب من العلم ورفداً لا يشح على قاصديه.

مقدّمة

« في ذكر أوصاف القرآن العامة الجامعة »

قد وصف الله كتابه بأوصاف جليلة عظيمة تنطبق على جميعه ، وتدل أكبر دلالة على أنه الأصل والأساس لجميع العلوم النافعة ، والفنون المرشدة لخير الدنيا والآخرة .

وصفه بالهدى والرشد ، والفرقان ، وأنه مبين وتبيان لكل شيء ، فهو في نفسه هدى ، ويهدي الخلق لجميع ما يحتاجونه من أمور دينهم ودنياهم ، ويرشدهم إلى كل طريق نافع ، ويفرق لهم بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ، وبين أهل السعادة والشقاوة بذكر أوصاف الفريقين ، وفيه بيان الأصول والفروع بذكر أدلتها النقلية والعقلية ، فوصفه بهذه الأوصاف المطلقة العامة التي لا يشذ عنها شيء في آيات كثيرة .

وقيد هدايته في بعض الآيات بعدة قيود : قيد هدايته بأنه هدى للمؤمنين ، المتقين ، لقوم يعقلون ، ويتفكرون ، ولمن

قصده الحق . وهذا بيان منه تعالى لشرط هدايته ، وهو أن المحل لا بد أن يكون قابلا وعاملا ، فلا بد لهدايته من عقل وتفكير وتدبر لآياته . فالمعرض الذي لا يتفكر ولا يتدبر آياته لا ينتفع به ، ومن ليس قصده الحق ولا غرض له في الرشاد ، بل قصده فاسد وقد وطن نفسه على مقاومته ومعارضته ، ليس له من هدايته نصيب. فالأول حرم هدايته لفقد الشرط ، والثاني لوجود المانع ، فأما من أقبل عليه وتفكر في معانيه وتدبرها بحسن فهم ، وحسن قصد ، وسلم من الهوى ، فانه يهتدي به إلى كل مطلوب ، وينال به كل غاية جليلة ومرغوب .

ووصفه بأنه رحمة ، وهي الخير الديني والدنيوي والأخروي المترتب على الاهتداء بالقرآن ، فكل من كان أعظم اهتداءً به فله من الرحمة والخير والسعادة والفلاح بحسب ذلك .

ووصفه بأنه « نور » ، وذلك لبيانه وتوضيحه العلوم النافعة ، والمعاني الكاملة ، وأن به يخرج العبد من جميع الظلمات : ظلمات الجهل والكفر والمعاصي والشقاء ، إلى نور العلم واليقين والايمان والطاعة والرشاد المتنوع .

ووصفه بأنه « شِفاء لما في الصدور » ، وذلك يشمل جميع أمراض القلوب . فهو يوضح أمراض القلوب ويشخصها ، ويرشد العباد إلى كل وسيلة يحصل بها زوالها وشفاؤها . فيذكر لهم أمراض الجهل والشكوك والحيرة وأسباب ذلك ، ويرشدهم إلى قلعها بالعلوم النافعة واليقين الصادق ، وسلوك الطرق الصحيحة

المزيلة لهـــذه العلل . ويذكر لهم أمراض الشهوات والغي ، ويبين لهم أسبابها وعلاماتها وآثارها الضارة . ويذكر لهم ما به تعالج من المواعظ والتذكر والترغيب والترهيب ، والمقابلة بين الامور وترجيح ما ترجحت مصلحته العاجلة والآجلة

ووصفه بأنه « كله محكم » ، وكله متشابه في الحسن ، وبعضه متشابه من وجه ، محكم من وجه آخر . فأما وصفه في عدة آيات أنه كله محكم ، فلبلاغته وبيانه التام واشتماله على غاية الحكمة في تنزيـل الأمور منازلها ، ووضعها مواضعها ، وأنه متفق غير مختلف ، ليس فيه اختلاف ولا تناقض بوجه من الوجوه .

وأما « حسنه » فلما فيه من البيان التام لجميع الحقائق ، ولأنه بين أحسن المعاني النافعة في العقائـد والأخلاق والآداب والاعمال ، فهي في غاية الحسن لفظا ومعنى ، وآثارها أحسن الآثار .

وكل هذه المعاني المثناة في القرآن يشهـــد بعضها لبعض في الحسن والكمال ، ويصدق بعضها بعضاً.

وأما وصفه بأن منه « آيات محكمات هن أم الكتاب ،وأخر متشابهات » ، فالمتشابهات هي التي يقع الاشكال في دلالتها لسبب مـــن الأسباب اللفظية والعبارات المركبة ،فأمر الله بردها إلى المحكمات الواضحة بينة المعاني التي هي نص في المراد . فاذا ردت المتشابهات إلى المحـــكمات صارت كلها محكمات ، وزال الشك

والاشكال ؛ وحصل البيان للهدى من الضلال .

ووصفه بأنه كله « صلاح ويهدي إلى الاصلاح ، وإلى أقوم الأمور وأرشدها وأنفعها في كل شيء من دون استثناء » ، وهذا الوصف المحيط لا يخرج عنه شيء، فهو اصلاح للعقائد والقلوب، وللأخلاق والأعمال ، ويهدي إلى كل صلاح ديني ودنيوي بحيث تقوم به الأمور ، وتعتـــدل به الاحوال ، ويحصل به الكمال المتنوع من كل وجه بالارشاد إلى كل وسيلة نافعة تـــؤدي إلى المقاصد والغايات المطلوبة ، فلا سبيل إلى الهداية والصلاح لجميع الأمـــور إلا بسلوك الطرق التي أرشد اليها القرآن ، وحث العباد عليها .

فمتى عرفت : أن القرآن العظيم موصوف كله بهذه الأوصاف وأكملها وأتمها وأنفعها للعباد ، وأنه أعيدت فيه هـــذه المعاني الجليلة ومزجت فيه مزجاً عجيباً غريباً في كماله وحسنه ، فهمت أن طالب العلم إذا وقف على تفسير بعض الآيات تدرب بها وتوسل بها إلى معرفة بقية الآيات .

علوم التوحيد والعقائد والاصول

١ – بسم الله الرحمن الرحيم : الحمدُ لله ربِّ العالَمين . الـرَّحْمَن الرَّحيم . مَالِكِ يومِ الدِّينِ . إيَّاكَ نعبُدُ وإيَّاكَ نَستَعينُ . إهْدِنا الصِّراطَ المُستَقِيمَ . صِراطَ الذين أَنْعَمْتَ عليهم غَيرِ المَغْضُوبِ عليهم ولا الضَّالينَ .

أي أبتـدىء بكل اسم لله تعالى ، لأن لفظ « اسم » مفرد مضاف ، فيعم جميع أسماء الله الحسنى . فيكون العبد مستعيناً بربه وبكل اسم من اسمائه على ما يناسبه من المطالب ، وأجل ما يستعان به على عبادة الله ، وأجل ذلك الاستعانة على قراءة كلام الله ، وتفهم معانيه ، والاهتداء بهديه .

« الله » هو المألوه المستحق لافراده بالمحبة والخوف والرجاء وأنواع العبادة كلها لما اتصف به من صفات الكمال ، وهي التي **تدعو** الخلق إلى عبادته والتأله له .

(الرحمن الرحيم) اسمان دالان على أنه تعالى ذو الرحمة **الواسعة**

العظيمة التي وسعت كل شيء ، وعمت كل مخلوق ، وكتب الرحمة الكاملة للمتقين المتبعين لأنبيائه ورسله؛ فهؤلاء لهم الرحمة المطلقة المتصلة بالسعادة الأبدية ، ومن عداهم محروم من هـــذه الرحمة الكاملة ، لأنه الذي دفع هذه الرحمة وأباها بتكـذيبه للخبر ، وتوليه عن الأمر ، فلا يلومن إلا نفسه .

واعلم أن من القواعـد المتفق عليها بين سلف الأمة وأئمتها ما دل عليه الكتاب والسنة من الايمان بأسماء الله كلها ، وصفاته جميعها ، وبأحكام تلك الصفات ، فيؤمنون مثلا بأنه رحمن رحيم ذو الرحمة العظيمة التي اتصف بها، المتعلقة بالمرحوم؛ فالنعم كلها من آثار رحمته ، وهكذا يقال في سائر الأسماء الحسنى؛ فيقال: عليم : ذو علم عظيم يعلم به كل شيء ، قدير ذو قدرة يقدر على كل شيء، فان الله قد أثبت لنفسه الاسماء الحسنى، والصفات العليا، وأحكام تلك الصفات ، فمن أثبت شيئاً منها ونفى الآخر ، كان مع مخالفته للنقل والعقل متناقضاً مبطلا .

« الحمد لله »: الحمد هو الثناء على الله بصفات الكمال وبأفعاله الدائرة بين الفضل والعدل ، المشتملة على الحكمة التامة ؛ ولا بد في تمام حمـد الحامد من اقتران محبة الحامد لربه ، خضوعه له ، فالثناء المجرد من محبة وخضوع ليس حمداً كاملا .

« رب العالمين » : الرب هو المربي جميع العالمين بكل أنواع التربية ، فهو الذي خلقهم ورزقهم وأنعم عليهم بالنعم الظاهرة

والباطنة ، وهذه التربية العامة لجميع الخلق ، برهم وفاجرهم ، بل المكلفون منهم وغيرهم ، وأما التربية الخاصة لأنبيائه وأوليائه ، فانه مع ذلك يربي إيمانهم فيكمله لهم ، ويدفع عنهم الصوارف والعوائق التي تحول بينهم وبين صلاحهم وسعادتهم الأبدية ، وتيسيرهم لليسرى وحفظهم من جميع المكاره ، وكما دل ذلك على انفراد الرب بالخلق والتدبير والهداية وكمال الغنى ، فانه يدل على تمام فقر العالمين اليه بكل وجه واعتبار ، فيسأله من في السموات والأرض بلسان المقال والحال جميع حاجاتهم ويفزعون اليه في مهماتهم [1].

« مالك يوم الدين » : المالك هو من اتصف بالصفات العظيمة الكاملة التي يتحقق بها الملك ، التي من آثارها أنه يأمر وينهى ، ويثيب ويعاقب ، ويتصرف في العالم العلوي والسفلي التصرف التام المطلق بالأحكام القدرية والاحكام الشرعية ، وأحكام الجزاء ، فلهذا أضاف ملكه ليوم الدين مع أنه المالك المطلق في الدنيا والآخرة . فانه يوم القيامة الذي يدين الله فيه العباد بأعمالهم خيرها وشرها ، ويرتب عليها جزاءها ، وتشاهد الخليقة من آثار ملكه وعظمته وسعته ، وخضوع الخلائق كلهم لعظمته وكبريائه ، واستواء الخلق في ذلك اليوم على اختلاف طبقاتهم في نفوذ أحكامه عليهم ما يعرفون به كمال ملكه وعظمة سلطانه .

« إياك نعبد وإياك نستعين » : أي نخصك يا ربنا وحدك

---

(١) تقدم تفسير « الرحمن الرحيم » مع البسملة .

بالعبادة والاستعانة فلا نعبد غيرك؛ ولا نستعين بسواك. فالعبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة فهي القيام بعقائد الايمان وأخلاقه وأعماله محبة لله وخضوعاً له.

والاستعانة هي الاعتماد على الله في جلب المنافع ودفع المضار مع الثقة به في حصول ذلك، وهذا التزام من العبد بعبودية ربه، وطلب من ربه أن يعينه على القيام بذلك، وبذلك يتوسل إلى السعادة الأبدية والنجاة من جميع الشرور، فلا سبيل لذلك إلا بالقيام بعبادة الله والاستعانة به، وعلم بذلك شدة افتقار العبد لعبادة الله والاستعانة به.

« إهدنا الصراط المستقيم » : أي دلنا وارشدنا ووفقنا للعلم بالحق والعمل به، الذي هو الصراط المستقيم المعتدل الموصل إلى الله وإلى جنته وكرامته، وهذا يشمل الهداية إلى الصراط، وهي التوفيق للزوم دين الاسلام، وترك ما سواه من الأديان الباطلة، ويشمل الهداية في الصراط وقت سلوكه علماً وعملا.

فهذا الدعاء من أجمع الادعية وأنفعها للعبد، ولهذا أوجبه الله ويسره.

وهذا الصراط هو طريق. و « صراط الذين أنعمت عليهم » بالنعمة التامة المتصلة بالسعادة الأبدية، وهم الأنبياء والصديقون والشهداء والصالحون.

« غير المغضوب عليهم » وهم الذين عرفوا الحق وتركوه كاليهود ونحوهم.

« ولا الضالين » الذين ضلوا عن الحق كالنصارى ونحوهم.

* * *

فهذه السورة على إيجازها قد جمعت علوماً جمة تضمنت أنواع التوحيد الثلاثة :

توحيد الربوبية يؤخذ من قوله : رب العالمين .

وتوحيد الالهية من قوله : إياك نعبد وإياك نستعين ، فهو المألوه بعبادته والاستعانة به .

وتوحيد الاسماء والصفات بأن يثبت لله صفات الكمال كلها التي أثبتها لنفسه وأثبتها له رسوله ﷺ. وقد دل على ذلك إثبات الحمد لله ؛ فان الأسماء الحسنى والصفات العليا ، وأحكامها كلها محامد ومدائح لله تعالى .

وتضمنت إثبات الرسالة في قوله : إهدنا الصراط المستقيم . لأنه الطريق الذي عليه النبي ﷺ . وذلك فرع عن الايمان بنبوته ورسالته ، وتضمنت اثبات الجزاء وانه بالعدل ، وذلك مأخوذ من قوله : مالك يوم الدين .

وتضمنت إثبات مذهب أهل السنة والجماعة في القدر ، وأن جميع الاشياء بقضاء الله وقدره ، وأن العبد فاعل حقيقة ليس مجبوراً على أفعاله. هذا يفهم من قوله : إياك نعبد وإياك نستعين. فلولا أن مشيئة العبد مضطر فيها إلى اعانة ربه وتوفيقه لم يسأل الاستعانة ، وتضمنت أصل الخير ومادتـــه ، وهو الاخلاص الكامل لله في قول العبد : إياك نعبد وإياك نستعين .

ولما كانت هذه السورة بهذه العظمة والجلالة أوجبها الشارع على المكلفين في كل ركعة من صلاتهم فرضاً ونفلا ، وفيها تعليم من الله لعباده كيف يحمدونه ويثنون عليه ويمجدونه بمحامده ثم يسألون ربهم جميع مطالبهم ، ففيها دليل على افتقارهم إلى ربهم في الأمرين؛ مفتقرين اليه في أن يملأ قلوبهم من محبته ومعرفته ، ومفتقرين اليه في أن يقوم بمصالحهم ويوفقهم لخدمته .

والحمد لله رب العالمين . .

فصل فى آيات تتعلق بالجهاد وتوابعه

قال الله تعالى : (أُذِنَ للذين يُقاتَلُون بأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وأَنَّ اللهَ على نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ . الذين أُخْرِجوا من ديارهم بغير حق إلاّ أَنْ يقولوا ربُّنَا اللهُ ، ولولا دَفْع الله الناسَ بعضهم ببعض لهُدِّمَتْ صَوامِعُ ، وبِيَعٌ وصلوات ومساجدُ يُذْكَرُ فيها اسمُ الله كثيراً ، ولينصرَنَّ اللهُ من ينصُرُهُ إنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عزيز) .

(الآيات ٣٩ و ٤٠ و ٤١ من سورة الحج)

كان المسلمون في أول الأمر مأمورين بكف الأيدي عن قتال الكفار ، وإنما جهادهم بالدعوة لحكمة ظاهرة ، فلما اضطهدوا واضطرهم الأعداء إلى ترك بلادهم وأوطانهم ، وقتلوا من قتلوا ، وحبسوا من حبسوا ، وجدّوا في العداوة البليغة بكل طريق ، وهاجر المسلمون بسبب ذلك إلى المدينة وقوّاهم الله على قتال الأعداء ، وقد رماهم الاعداء عن قوس واحدة ، فحينئذ أذن الله لهم في

القتال ولهذا قال : (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا) لمنعهم من دينهم وإخراجهم من ديارهم ومطاردتهم لهم في كل مكان . (وأن الله على نصرهم لقدير) وهذا مع أمره لهم بفعل الأسباب ومقاومة الاعـــداء بكل مستطاع ؛ أمر لهم بالتوكل عليه واستنصاره والطلب منه .

ثم ذكر صفة عدوانهم فقال : (الذين أخرجوا من ديارهم) بالأذية والفتنة بغير حق ، إلا أن ذنبهم إيمانهم بالله واعترافهم بأنه ربهم وإلههم ، وأنهم أخلصوا له الدين وتبرأوا من عبادة المخلوقين .

وهذا كما قال تعالى: (وما نقموا منهـــم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد) وهـــذا ظاهر في حكمة الجهاد وعظم مصلحته ، وأنه من الضروريات في الدين ، فان المقصود به إقامة دين الله ، والدعوة إلى عبادته التي خلق الله المكلفين لها وأوجبها عليهم ، ودفع كل من قاوم الأمر الضروري ، ومقاومة الظالمين المعتدين على دين الله وعلى المؤمنين من عباده ، كما قال تعالى : (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله) ولهذا قال :(ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض[1] لهدمت صوامع وبيع وصلوات

---

١ ـ قال المؤلف في تفسيره (١٤٨/٥) : ويدفـــع الله بالمجاهدين في سبيله ضرر الكافرين .

ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً) .

فلولا مدافعة الله الناس بعضهم ببعض بأسباب متعددة وطرق متنوعة قدرية وشرعية — وأعظمها وأجلها وأزكاها الجهاد في سبيله — لاستولى الكفار الظالمون على المسلمين فخربوا معابدهم، وفتنوهم عن دينهم. ولكن ألطاف الله عظيمة وأياديه جسيمة. فدل هذا على أن الجهاد مشروع لأجل دفع الصائل والمؤذي، وهو مقصود لغيره. ودل ذلك على أن البلدان التي حصلت فيها الطمأنينة بعبادة الله، وعمرت مساجدها وأقيمت فيها شعائر الدين كلها من فضل المجاهدين وبركتهم، دفع الله عنها الكافرين [1]، وبهذا وشبهه يعرف حكمة الجهاد الديني، وأنه من الضروريات لا كقتال الظلمة المبني على العداوات والجشع والظلم والاستعباد للخلق.

بل الجهاد الاسلامي مرماه وغرضه الوحيد إقامة العدل، وحصول الرحمة، واستعباد الخلق لخالقهم، وأداء الحقوق كلها، ونصر المظلومين، وقمع الظالمين، ونشر الصلاح والإصلاح المطلق بكل وجه واعتبار، وهو من أعظم محاسن دين الاسلام.

---

١ ــ كانت العبارة في (تيسير العزيز المنان) مضطربة فنقلنا من كلام المؤلف في « تفسيره » لهذه الآية (٥/١٤٨) ما يوضح المعنى المراد .

(يَا أيها الذين آمَنُوا إذا لَقِيتُمْ فِئَةً فاثْبُتُوا واذكرُوا اللهَ كثيراً لعلكم تُفْلِحُون ، وأَطِيعُوا اللهَ ورسولَهُ ولا تَنَازَعوا فَتَفْشَلُوا وتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ، واصبِرُوا إنَّ اللهَ مع الصابرين ولا تكونُوا كالذين خَرَجوا من ديارهم بَطَراً ورِئَاءَ الناسِ ويَصُدُّون عن سبيل الله والله بما يَعمَلون محيطٌ) (الانفال ٤٥ - ٤٧) .

هذه الآيات تضمنت الأمر بجهاد الأعداء ، والارشاد إلى الأسباب التي ينبغي للجيوش والمجاهدين الأخذ بها . فمن أعظمها وأهمها أمران : **الصبر** وهو الثبات التام وإبداء كل مجهود في تحصيل ذلك. **والثاني التوكل** على الله والتضرع اليه والاكثار من ذكره . فمتى اجتمع الأمران على وجه الكمال والتكميل فقد أتى المجاهدون بالأسباب الوحيدة للنصر والفلاح ، فليبشروا بنصر الله وليثقوا بوعده .

فيدخل بالأمر بالصبر والثبات : تمرين النفوس على ذلك . فانه من يتصبر يصبره الله ، وتعلم الرمي والركوب والفنون العسكرية المناسبة للزمان ، فان التعليم وتعلم أمور الجهاد من أكبر العون على الثبات والصبر . ومن ذلك الحث على الشجاعة والسعي في أسبابها ، والترغيب في فضائل الجهاد وما فيه من الثمرات العاجلة والآجلة ، وما في تضييعه من ضياع الدين والدنيا ،

واستيلاء الأعداء والذل والدمار ، فان النفوس الأبية والهمم العليا لا ترضى لأنفسها بغير هذا الخلق الفاضل الذي هو أعلى الأخلاق وأنفعها . قال تعالى : (إن تكونوا تألمون فانهم يألمون كما تألمون وترجون من الله مالا يرجون) فحثهم على الصبر بتألمهم وطمعهم في الأجر والثواب وإدراك المقامات العالية .

وقال أيضا في ذم الناكلين وترغيب التائبين الصابرين :(ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطأون موطئا يغيظ الكفار ، ولا ينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح ، إن الله لا يضيع أجر المحسنين . ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون) .

وقال عن المنافقين ونكولهم عن مشقة الجهاد : (وقالوا : لا تنفروا في الحر ، قل : نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون) أي لو كان عندهم فقه نافع في تنزيل الأشياء منازلها وتقديم ما ينبغي تقديمه لآثروا مشقة الجهاد على راحة القعود الضار عاجلا وآجلا .

وفي هذا أنه بحسب فقه العبد وعلمه ويقينه يكون قيامه بالجهاد وصبره عليه وثباته ، ومن دواعي الصبر – وهو من الفقه أيضاً – أنه إذا علم المجاهد أنه على الحق ويجاهد أهل الباطل وأن هذا أعلى الغايات وأشرفها وأحقها وأن الحق منصور وعاقبته حميدة .

ومن دواعي الصبر: الثقة بالله وبوعده ، فان الله وعد الصابرين.

العون والنصر، وأنه معهم في كل أحوالهم، ومن كان الله معه فلو اجتمع عليه من بأقطارها لم يخف إلا الله؛ ومما يعين على الصبر والثبات . (الأمر الثاني) : وهو التوكل على الله وقوة الاعتماد عليه والتضرع إليه في طلب النصر والاكثار من ذكره كما قال تعالى هنا حيث رتب على هذا الفلاح (واذكروا الله هذا كثيراً لعلكم تفلحون)، وقال تعالى (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين)، وقال تعالى : (وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين ، وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ، فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة) .

وقال تعالى : (يا ايها الذين آمنوا إن تنصروا الله) أي تقوموا بدينه وبالحق الذي جاء به رسوله مخلصين لله قاصدين أن تكون كلمة الله هي العليا ينصركم ويثبت أقدامكم ،وقال تعالى: (إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون) فإخباره بأنه المتفرد بنصرهم ، وأن غيره لا يملك من النصر شيئاً ، وأمرهم بالتوكل عليه أمر لهم بأقوى الاساليب النافعة في هذا المقام العظيم ، وقال تعالى : (ومن يتوكل على الله فهو حسبه — أليس الله بكاف عبده) أي الذي قام بعبوديته فبحسب توكلهم عليه

وقيامهم بعبوديته يحصل لهم النصر والكفاية التامة .

ومن أسباب النصر والصبر والثبات اتفاق القلوب وعدم التفرق والتنازع ، فان ذلك محلل للقوة موجب الفشل وأما اجتماع الكلمة وقيام الألفة بين المؤمنين واتفاقهم على إقامة دينهم وعلى نصره فهذا أقوى القوى المعنوية التي هي الأصل والقوة المادية تبع لها ، والكمال الجمع بين الأمرين كما أمر الله بذلك في هذه الآية وفي قوله : (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم) الآية .

ومن أسباب الثبات والنصر حسن النية وكمال الاخلاص في إعلاء كلمة الحق فلهذا حذر تعالى من مشابهة الذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله ، فهؤلاء لما لم يعتمدوا على ربهم وأعجبوا بأنفسهم وخرجوا أشرين بطرين، وكان قتالهم لنصر الباطل باءوا بالخيبة والفشل والخذلان ، ولهذا أدّب خيار الخلق لما حصل من بعضهم الاعجاب بالكثرة في غزوة حنين حيث قال القائل : لن نغلب اليوم عن قلة . فقال : « ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين » فلما زال هذا الأمر عنهم وعرفوا ضعفهم وعاقبة الاعجاب «أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها » الآية .

ومن الأسباب التي أرشدنا الله اليها في القتال: الثبات والصبر وحسن التدبير ، والنظام الكامل في جميع الحركات العسكرية، قال تعالى : « وإذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم » .

وكان ﷺ يرتب الجيش وينزلهم منازلهم ، ويجعل في كل جنبة كفؤها، ويسد الثغرات التي يخشى ان يتسرب منها العدو ؛ يحفظ المكامن ، ويبعث العيون لتعرف احوال العدو،و يستعين بمشاورة أصحابه كما أمر الله بذلك ، خصوصاً في هذا الأمر المهم ؛ وتعرف اسرار العدو وبث العيون ووضع الجواسيس السريين الذين لا يكاد يشعر بهم ، كما أن من المهم التحرز من جواسيس العدو وعمل الاسباب لأخذ الحذر من ذلك بحسب ما يليق ويناسب الزمان والمكان .

ومن المهم أيضاً أن تفعل جميع الأسباب الممكنة في اخلاص الجيوش وقتالها عن الحق ، وأن تكون غايتها كلها واحدة لا يزعزعها عن هذا الغرض السامي فقد رئيس ، أو انحراف كبير أو تزعزع مركز قائد أو توقف في صمودها في طريقها النافع على أمور خارجية ، فانه متى كانت هذه الغاية العالية هي التي يسعى لها أهل الحل والعقد ، ويعملون لها التعليمات القولية والفعلية ، كانت الجيوش التي على هذا الوصف مضرب المثل في الكمال وسداد الأحوال وحصول المقاصد الجليلة ، ولهذا أرشد

الله المؤمنين يوم أحد إلى هـذا النظام العجيب ، فقال تعالى :
(وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً ، وسيجزي الله الشاكرين).

فنبههم على أنـه وإن كان محمد هو الامام الأعظم والرسول المعظم ؛ فانه لا ينبغي لكم أن يفت فقده في عزيمتكم وانحلال قوتكم ، بل أنتم تقاتلون لله ، وعلى الحق الذي بعث به رسوله ، ولدفع الباطل والشرور ، فاجعلوا هذه الغاية نصب أعينكم ، وأساس عملكم ، وامضوا قدماً في سبيل الله غـير هائبين ولا متأثرين إذا أتت الأمور على خلاف مرادكم ، فان الأمور هكذا تكون : تارة لك وتارة عليك ، والكمال كل الكمال أن يكون العبد عبداً لله في الحالين ، في السراء والضراء ، في حال إتيان الأمور على ما يحب ، أو ضد ذلك ، وهـذا الوصف هو كمال الفرد وكمال الجماعات والله الموفق .

ومن الأمور المهمة جداً أن يكون الرئيس رحيماً برعيته ، ناصحا محباً للخير ساعياً فيه جهده ، كثير المراودة والمشاورة لهم ، خصوصاً لأهل الرأي والحجى منهم ، وأن تكون الرعية مطيعة منقادة ليس عندهم منازعات ولا مشاغبات ، قال تعالى :
(يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ، فان تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول) أي إذا

حصل النزاع في أي أمر من الأمور ، خصوصاً في الأمور المتعلقة في سياسة الحرب، ردت إلى هـــذا الأصل الذي يطمئن اليه المؤمنون ، ويلجأ اليه كبارهم وصغارهم ، لعلمهم أنه فرض على جميعهم ، ولعلمهم أن حكم الله ورسوله هو الخير والصلاح ، وأن الله يعلم من مصالحهم ما لا يعلمون ويرشدهم إلى كل ما بـــه ينتفعون .

ومن الأمور المهمة جداً سلوك طريق الحق والعدل في قسمة الغنائم ، وأن لا تكون ظالمة مستبداً بها الأقوياء ، محرومـــاً منها الضعفاء ؛ أو تكون فوضى ،فان هذين الأمرين مع ضررهما في الدين ، وأن هذا لا يحل ولا يجوز، وهو من أعظم المحرمات ، فانهما يضران غاية الضرر في الجيوش في وقوع العداوات وحصول الجشع والطمع وكون وجهتها تكون متباينة ، فبذلـــك ينحل النظام ويقع الفشل ويكون هذا الأمر أعظم سلاح للأعداء على المسلمين .

ومن الأمور المهمة جداً أيضاً، وهي عون كبير في الحروب ، السعي بقدر الاستطاعة في إيقاع الانشقاق في صفوف الاعداء ، وفعل كل سبب يحصل بـــه تفريق شملهم وتفريق وحدتهم؛ ومهادنة من يمكن مهادنته منهم ، وبذل الأموال للرؤساء إذا غلب على الظن أن ينكف شرهم عن المسلمين فكم حصل بهـذا الطريق من نكاية العدو ما لا يحصل بالجيوش الكثيرة ، ولهذا

قال : (إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق ، أو جاؤوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم ولو شاء الله لسلطهم عليكم فقاتلوكم) فذكر الله هذه المصلحة العظيمة في الكف عن أمثال هؤلاء الموصوفين .

والموفقين من الرؤساء وقواد الجيوش في هذه الأمور مقامات معروفة صار لهم فيها اليد البيضاء على المسلمين .

فانظر إلى هذه التعاليم الالهية التي هي النظام الكامل الوحيد في جميع الأزمنة والأمكنة ، واستدل بذلك على أن الاسلام الحقيقي هو الدين الحق الذي اليه ملجأ الخليقة وبه سعادتها وسلامتها من الشرور ، وأن النقص والهبوط بتضييع هذا الدين الذي اكمله الله وأتم به النعمة على المؤمنين .

القرآن تبيان لكل شيء

إن القرآن تبيان لكل شيء ، فعلوم الأصول وعلوم الفروع والأحكام ، وعلوم الأخلاق والآداب ، وعلوم الكون ، وكل ما يحتاجه الخلق من ذلك اليوم ،[1] إلى أن تقوم الساعة ، في القرآن بيانه والارشاد اليه وهو الذي اليه المرجع في جميع الحقائق الشرعية والعقلية ، ومحال وممتنع أن يأتي علم صحيح لا محسوس ولا معقول ينقض شيئاً مما جاء به القرآن [2] ، فانه

---

(١) هو يوم ان أتم الله دينه بنزول هذه الآية الكريمة ، « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا » وذلك في حجة الوداع .

(٢) هذا التعبير دقيق ، وهو يشير الى ان كل ما تضمنه القرآن هو من الحقائق التي لا تقبل التغيير ولا التبديل ، ولا يمكن لاكتشافات العلم ان تنقض شيئا مما جاء في القرآن .

وليس يعني هذا ان نتلمس في آيات القرآن الكريم قواعد العلوم التجريبية وتطبيقاتها لان هدف القرآن انما هو هداية الانسان ورسم طريق الحياة المستقيمة له ليفوز في الدنيا وليسعد في الآخرة .

وننصح القارىء الكريم ان يقرأ ما كتبه الشهيد الاستاذ سيد قطب رحمه الله تعالى في تفسيره عند قوله تعالى : « ويسألونك عن الأهلة ... »

في ظلال القرآن ١ ـ ٢/٨٧ الطبعة الرابعة ـ دار العربية .

تنزيل من حكيم حميد، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً .

(إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم) (والله يقول الحق وهو يهدي السبيل) فهو الحق الذي يقوله الله في كتابه وعلى لسان رسوله وهو الهداية إلى السبيل لكل علم وعمل، كما أن قوله تعالى: (ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا) جمعت الكمال في ألفاظه ومعانيه ؛ فألفاظه أوضح الألفاظ وأبلغها ، وأحسنها تفسيراً لكل ما تفسره من الحقائق ، بوضوحها وأحكامها وقوامها ، ومعانيه كلها حق ، وذلك أنه تمت كلمة ربك صدقاً وعدلا ، صدقاً في أخبارها ؛ وعدلا في أحكامها : أوامرها ونواهيها (ومن أحسنُ منَ الله حكماً لقوم يوقنون) فأحكامه على الاطلاق أحسن الأحكام وأنفعها للعباد ، فهذا في شرعه ودينه ، ونظيره في خلقه ، الذي أحسن كل شيء خلقه ، وبدأ خلق الانسان من طين .

وقد جمع الله في كتابه بين المتقابلات العامة ، وذلك لكمال هذا الكتاب وأحكامه كالأمثلة السابقة ، وكما في قوله تعالى : (وتعاونوا على البر والتقوى) .

فان البر اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من العقائد والأخلاق والأعمال ، والتقوى اسم جامع لما يجب اتقاؤه من

جميع المآثم والمضار ، ولهـذا قال : (ولا تعاونوا على الاثم والعدوان) فالاثم : المعاصي المتعلقة بحقوق الله ، والعدوان: البغي على الخلق في الدماء والأموال والاعراض والحقوق .

وكذلك قوله تعالى : (وتزودوا فان خير الزاد التقوى) فجمع بين زاد سفر الدنيا ، وزاد سفر الآخرة بالتقوى .

وكذلك قوله تعالى : (يا بني آدم قد أنزلنا عليـكم لباساً يواري سوآتكم وريشاً) فهذا اللباس الحسي الضروري والكمالي، ثم قال : (ولباس التقوى ذلك خير) ، فهذا اللباس المعنوي ، وإن شئت قلت عن الأول : إنه لباس البدن ، وعـن لباس التقوى : إنه لباس القلب والروح .

وكذلك قوله تعالى : (ولقاهم نضرة وسروراً) جمع لهم بين نعيم الظاهر بالنضرة والحسن والبهاء ، ونعيم الباطن بكمال الفرح والسرور .

وكذلك قوله في صفة نساء الجنة : (فيهن خيرات حسان) فوصفهن بجمال الباطن بحسن الخلق الكامل ، وجمال الظاهر بأنهن حسان الوجوه وجميع الظاهر .

ولما ذكر السير الحسي ذكر السير المعنوي ، فقال : (وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر) .

وكذلك قوله (فانفروا ثبات) أي أفراداً بدليل قوله : (أو انفروا جميعاً) .

وكذلك قوله : (لا يصلاها إلا الأشقى الذي كذب وتولى) كذب الخبر ، وتولى عن الطاعة ، « التكذيب » : انحراف الظاهر ، ونظيره قوله : (إنا قد اوحي الينا ان العذاب على من كذب وتولى) .

وضد ذلك ما رتب الله على الايمان والعمل الصالح من خير الدنيا والآخرة ؛ فان الايمان ضد التكذيب ، والتولي ضده الاستقامة والعمل الصالح .

وكذلك قوله : (إياك نعبد وإياك نستعين) فاعبده وتوكل عليه تجمع جميع ما يراد من العبد ، فالعبادة حق الله على العبد ، والاعانة من ربه إسعافه بما استعان عليه من عبودية ربه وغيرها من منافعه ؛ فالعبد في عبادةٍ لله واستعانةٍ به .

وكذلك قوله تعالى : (من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) فجمع للمؤمن العامل للصالحات بين طيب الحياة في الدنيا والآخرة ، ونظيره (للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ، ولأجر الآخرة أكبر) - (ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة) .

وكذلك قوله : (لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) في مواضع ، نفي جميع المكروه الماضي بنفي الحزن والمستقبل ؛ بنفي الخوف .

وكذلك قوله تعالى (فروح وريحان وجنة نعيم) فالروح اسم جامع لنعيم القلب، والريحان اسم جامع لنعيم الأبدان؛ وجنة نعيم تجمع الأمرين.

وكذلك قوله (ومن أعرض عن ذكري) أي القرآن الذي أنزله (فإن له معيشة ضنكا، ونحشره يوم القيامة اعمى) جمع له بين عذاب الدنيا وعذاب البرزخ وعذاب دار القرار.

وكذلك قوله (إن الله لا يهدي من هو متكبر جبار) أي متكبر على الحق جبار على الخلق. ومثله (معتد اثيم) أي معتد في البغي على عباد الله (أثيم) أي متجرىء على محارم الله.

وكذلك قوله في مواضع (من ولي ولا نصير) فالولي الذي يجلب لمولاه المنافع (والنصير) الذي يدفع عنه المضار.

٢١١
ص ١٣٤

فوائد منثورة متنوعة غير مرتبة

الأمة : جاء في القرآن لعدة معان :

جاء بمعنى الامام الجامع لخصال الخير ، مثل قوله (إن ابراهيم كان أمة) .

وبمعنى الطائفة (وإن من أمة إلا خلا فيها نذير) وهذا المعنى كثير .

وبمعنى الملة والدين (وأن هذه امتكم أمة واحدة)

وبمعنى المدة الطويلة (وادكر بعد امة) .

* * *

السلطان : أكثر استعماله في القرآن بمعنى الحجة،مثل قوله : (**إن** عندكم من سلطان — فأتوا بسلطان مبين) .

ويأتي بمعنى الملك ، مثل قوله :(هلك عني سلطانيه) .

ويأتي بمعنى التسلط والسيطرة مثل قوله :(إنه ليس له سلطان

على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ، إنما سلطانـــه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون) .

* * *

اللسان : ورد في القرآن لعدة معان :

ورد بمعنى الجارحة (لا تحرك به لسانك ـ ويقولون بألسنتهم) وهو كثير .

وبمعنى اللغـــة (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه — بلسان عربي مبين) .

وبمعنى الثناء الحسن (واجعل لي لسان صدق في الآخرين) .

* * *

استوى : وردت في القرآن على ثلاثة أوجه :

تارة تعدى بعلى فتدل على العلو والارتفاع ، مثل «ثم استوى على العرش ـ لتستووا على ظهوره » .

وتعدى بالى فتدل على القصد مثـــل : (ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سموات) .

وتأتي بلا تعدية بحرف فتدل على الكمال ، ومنه قوله : (ولما بلغ أشده واستوى) أي كمل في عقله وأحواله كلها .

* * *

التأويل : أكثر وروده في القرآن بمعنى عاقبة الشيء ومـا يؤول اليه وقت وقوعه ، مثل قوله « هل ينظرون إلا تأويله ، يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل» أي وقوع المخبر به من العذاب.« هذا تأويل رؤياي من قبل»أي هذا ما آلت اليه ، وهذا وقوعها .

وقد يأتي بمعنى التفسير وهو قليل ، ومنه على أحـد التفسيرين (وما يعلم تأويله إلا الله) أي تفسيره. وعلى القول الآخر يكون من المعنى الأول ، أي وما يعلم حقيقة المخبر عنه إلا الله وحده، فعلى هـــذا المعنى يتعين الوقوف على (الله) وعلى المعنى الأول الذى بمعنى التفسير يعطف عليه (اولو العلم) أي ما يعلم تفسير المتشابه الذى يتشابه فهمه على اذهان اكثر الناس إلا الله وإلا أهل العلم فإنهم يعلمون تأويله بهذا المعنى .

* * *

الغافل : ورد في القرآن بمعنى الجاهل ، مثل قوله :(لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون) .

وبمعنى النسيان لذكر الله ونسيان طاعته، كقوله : (واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغـــدو والآصال ولا تكن من الغافلين — ولا تطع من أغفلنا قلبـه عن ذكرنا) .

* * *

فائدة : إخبار الله أنه مع عباده يرد في القرآن **على احد** معنيين :

أحدهما : المعية العامة ، كقوله : (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ، ولا خمسة إلا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا اكثر إلا هو معهم) أي هو معهم بعلمه وإحاطته .

الثاني: المعية الخاصة، وهي اكثر وروداً في القرآن ، وعلامتها أن يقرنها الله بالاتصاف بالاوصاف التي يحبها والأعمال التي يرتضيها ، مثل قوله : (إن الله مع المتقين) (مع المحسنين) (مع الصابرين) (لاتحزن ان الله معنا) (لا تخافا إنني معكما اسمع وأرى) . وهذه المعية تقتضي العناية من الله والنصر والتأييد والتسديد بحسب قيام العبد بذلك الوصف الذي رتبت عليه المعية .

* * *

ونظير هذا التقسيم **وصف العباد بأنهم عبيد لله** يرد في **القرآن** على نوعين : نوع عام ، مثل قوله (إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً) أي معبداً مملوكاً لله .

والنوع الثاني العبودية الخاصة ، هي تقتضي أن العبد بمعنى **العابد** المتعبد لربه القائم بعبوديته ، وذلك مثل قوله (وعباد **الرحمن** - تبارك الذي نزل الفرقان على عبده - أليس **الله**

بكاف عبده) فبحسب قيـــام العبد بعبودية ربه تحصل له كفاية الله .

* * *

ونظير هذا القنوت يرد في القرآن على قسمين :

قنوت عام ، مثل قوله: (وله من فيالسموات والأرض كل له قانتون) أي الكل عبيد خاضعون لربوبيته وتدبيره .

النوع الثاني:وهو الأكثر في القرآن : القنوت الخاص ، وهو دوام الطاعة لله على وجه الخشوع ، مثل قوله: (أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً وقوموا لله قانتين ـ يا مريم اقنتي لربك واسجدي ـ والقانتين والقانتات) ونحوها .

* * *

فائدة : طغيان الرئاسة وطغيان المال يحملان صاحبهـما على الكبر ، والبطر ، والبغي على الحق ، وعلى الخلق ، برهان ذلك قوله تعالى : (ألم تر إلى الذي حاج ابراهيم في ربه ان آتاه الله الملك) ، وقوله (ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى) فعلل هذا التجرؤ والطغيان بحصول الملك ورؤيته لنفسه الاستغناء .

أما الموفقون الاصفياء فانهم في هذه الأحوال يخضعـون لله ويعترفون له بالنعمة ويزداد تواضعهم ؛ ولهذا لمـــا رأى سليمان عليه السلام من ملكه ملكاً كبيراً ، ورأى عرش ملكـة سبأ

مستقراً عنده لم يطغ ويقل: هذا من حولي وقوتي ونحوه، بل قال: (هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر) . وقال قبل ذلك: (رب أوزعني أن اشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين) .

* * *

فائدة : من الحكمة استعمال اللين في معاشرة المؤمنين، وفي مقام الدعوة للكافرين، كما قال تعالى: « فبما رحمة من الله لنت لهم، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك » . وقال: « فقولا له قولا ليناً لعله يذكر او يخشى » فأمر باللين في هذه المواضع، وذكر ما يترتب عليه من المصالح .

كما أن من الحكمة استعمال الغلظة في موضعها . قال تعالى: « يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم » . لأن المقام هنا مقام لا تفيد فيه الدعوة، بل قد تعين فيه القتال، فالغلظة فيه من تمام القتال وقد جمع الله بين الأمرين في وصف خواص الأمة: « أشداء على الكفار رحماء بينهم » .

والفرق بين قوله: « إنك لا تهدي من أحببت » وبين **قوله** : « وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم » أن هداية الارشاد والتعليم والبيان هي التي أثبتها لرسوله، بل ولكل من له تعليم

وارشاد للخلق كما قال : « وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا» .وقال : « ولكل قوم هاد » . وأما هداية التوفيق ووضع الايمان في القلوب فانها مختصة بالله ، فكما لا يخلق ولا يرزق ولا يحيي ويميت إلا الله ، فلا يهدي إلا الله .

والفرق بين التبصرة والتذكرة في مثل قوله: (تبصرة وذكرى لكل عبد منيب) أن التبصرة هي : العلم بالشيء والتبصر فيه ، والتذكرة هي العمل بالعلم اعتقاداً وعملا .

وتوضيح هذا أن العلم التام النافع يفتقر إلى ثلاثة امور :
التفكر أولا في آيات الله المتلوة والمشهودة .
فاذا تفكر أدرك ما تفكر فيه بحسب فهمه وذكائه فعرف ما تفكر فيه وفهمه ، وهذا هو التبصر .

فاذا علمه عمل به ، فان كان اعتقاداً وإيماناً صدقه بقلبه وأقر به واعترف . وإن اقتضى عملاً قلبياً أو قولياً أو بدنياً عمل به ، وهذا هو التذكر وهو التذكرة ، وحاصل ذلك هو معرفة الحق واتباعه ، ومعرفة الباطل واجتنابه .

* * *

والفرق بين المواضع التي ورد في القرآن أن الناس لا يتساءلون ولا يتكلمون ، والمواضع التى ذكر فيها احتجاجهم وتكلمهم وخطاب بعضهم لبعض من وجهين :

أوجهها تقييد هذه المواضع بقوله : « لا يتكلمون ، إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً » فاثبات الكلام المتعدد من الخلق يوم القيامة تبع لاذن الله لهم في ذلك ، ونفي التساؤل والكلام في الحالة التي لم يؤذن لهم .

الوجه الثاني : ما قاله كثير من المفسرين : إن القيامة لها أحوال ومقامات ، ففي بعض الأحوال والمقامات يتكلمون وفي بعضها لا يتكلمون ، وهذا الوجه لا ينافي الاول ، فيقال : هذه الأحوال والمقامات تبع لإذن الله لهم أو عدمه .

* * *

والفرق بين إثبات الله في القرآن الانساب بين الناس في مواضع كثيرة ، ونفيها في مواضع :
أن المواضع المنفية المراد بها أن الا نساب لا تنفع ، كما أن جميع الأسباب لا تنفع يوم القيامة إلا سبب واحد وهو الايمان والعمل الصالح ، كما ذكره في كتابه في مواضع .

وأما المواضع المثبتة فهو المطابق للحقيقة ،ويذكر في كل مقام بحسبه :

ففي مقامات الفضل والثواب يذكر الله فضله على الجميع بالحاق الناقص من المؤمنين بالكامل من غير نقص لدرجة

الكامل ، مثل قوله : (والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء) أي ما نقصناهم ؛ ومثل :(جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم) ونحوها .

وفي مقامات العدل والعقوبة ،يذكر الانساب وأنها لا تنفع؛ وأن الامر أعظم من أن يلتفت الانسان الى اقرب الناس إليه ، مثل قوله : (يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه وصاحبته وأخيه وفصيلته التي تؤويه) ومثل : (يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه) .

ونظير هذا الإخبار عن المجرمين أنهم يسألون عن أعمالهم، وذلك على وجه اظهار العدل والتوبيخ والتقريع لهم والفضيحة، وفي بعض المواضع مثل :(فيومئذ لا يسئل عن ذنبه انس ولا جان) أي لا يحتاج في علم ذلك وجزائه عليه إلى سؤاله سؤال استعلام ، لأنها مسطرة عليهم قد حفظت بالشهود من الملائكة والجوارح والأرض وغيرها .



فائدة : النفي المحض لا يكون كمالا [1] .

ولهذا في مقامات المدح كل نفي في القرآن فانه يفيد فائدتين: نفي ذلك النقص المصرح به ، وإثبات ضده ونقيضه .

فيدخل في هذا أشياء كثيرة :

أعظمها أنه أثنى على نفسه بنفي أمور كثيرة تنافي كماله ؛ نفي الشريك في مواضع متعددة فيقتضي توحده بالكمال المطلق، وأنه لا شريك له في ربوبيته وإلهيته وأسمائه وصفاته .

وسبح نفسه في مواضع ، وأخبر في مواضع عن تسبيح المخلوقات: والتسبيح تنزيه الله عن كل نقص وعن أن يماثله أحد، وذلك يدل على كماله .

ونفى عن نفسه الصاحبة والولد ومكافأة أحد ومماثلته ، وذلك يدل على كماله المطلق وتفرده بالوحدانيه والغنى المطلق والملك المطلق .

---

(١) لعل هنا سقطا ، والصواب : النفي المحض لا يكون الا كمالا وقد نعتبر الكلام تاما وعندئذ يكون النفي المعين المنفي .

ونفى عن نفسه السنة والنوم والموت ، لكمال حياته وقيوميته .

ونفى كذلك الظلم في مواضع كثيرة وذلك يدل على كمال عدله وسعة فضله .

ونفى أن يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء أو يعجزه شيء ، وذلك لإحاطة علمه وكمال قدرته .

ونفى العبث في مخلوقاته وفي شرعه، وذلك لكمال حكمته .

وهذه فائدة عظيمة فاحفظها في خزانة قلبك ؛ فانها خير الكنوز وأنفعها .

كذلك نفى عن كتابه القرآن الريب والعوج والشك ونحوها ؛ وذلك يدل على أنه الحق في أخباره وأحكامه ، فأخباره أصدق الأخبار وأحكمها وأنفعها للعباد، وأحكامه كلها محكمة في كمال العدل والحسن الاستقامة على الصراط المستقيم .

وقال عن نبيه ﷺ :(ما ضل صاحبكم وما غوى) فنفى عنه الضلال من جميع الوجوه ، وهو عدم العلم أو قلته أو نقصه أو عدم جودته (والغي) وهو سوء القصد ، فيدل ذلك أنه أعلم الخلق على الاطلاق ، واهداهم وأعظمهم علماً ويقيناً وإيماناً، وأنه انصح الخلق للخلق ، وأعظمهم اخلاصاً لله وطلباً لما عنده، وأبعدهم عن الأغراض الرديئة .

وكذلك نفى عنه كل نقص قاله أعداؤه فيه وأنه في الذروه العليا من الكمال المضاد لذلك النقص .

وكذلك نفى الله عن أهل الجنة الحزن والكدر والنصب واللغوب والموت وغيرها من الآفات ، فيدل ذلك على كمال سرورهم وفرحهم واتصال نعيمهم وكماله ، وكمال حياتهم وقوة شبابهم ، وكمال صحتهم وتمام نعيمهم الروحي والقلبي والبدني من كل وجه ؛ وأنه لا أعلى منه حتى يطلب عنه حولا .

وعكس هذا ما نفى القرآن عنه صفات الكمال ، فانه يثبت له ضد ذلك من النقص ، كما نفى عن آلهة المشركين جميع الكمالات القولية والفعلية والذاتية ، وذلك يدل على نقصها من كل وجه وأنها لا تستحق من العبادة مثقال ذرة .

* * *

فائدة : قوله تعالى (إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم) أي القوة والشجاعة في هذه الآية ، على ان الملك إذا اجتمعت فيه هاتان الخصلتان : العلم بالولاية والسياسة ، وحسن التدبير والشجاعة والقوة ، فهو الذي يصلح للولاية والملك ، وإن لم يكن من بيت الملك ولا ذا مال ، فان العبرة بجميع الولايات إمكان اقامتها والنهوض بها على أكمل الحالات ،

وولاية الملك لا تتم إلا بالعلم والشجاعة القلبية والبدنية .

* * *

فائدة : قوله تعالى (وأتوا البيوت من أبوابها) يؤخذ من عمومها اللفظي والمعنوي أن كل مطلوب من المطالب المهمة ينبغي أن يؤتى من بابه ، وهو أقرب طريق ووسيلة يتوصل بها اليه ، وذلك يقتضي معرفة الأسباب والوسائل معرفة تامة ليسلك الأحسن منها والاقرب والأسهل ، والأقرب نجاحاً ، لافرق بين الأمور العلمية والعملية ، ولا بين الأمور الدينية والدنيوية ، ولا بين الأمور المتعدية والقاصرة ، وهذا من الحكمة .

* * *

فائدة : لما ذكر الله الأنبياء وأثنى عليهم قال : (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده) تدل على اتباع جميع الأنبياء في جميع هداهم . والله هداهم في عقائدهم وأخلاقهم وأعمالهم وأقوالهم وأفعالهم ، فكل أمر أثنى الله فيه على أحد من أنبيائه من عقيدة أو خلق أو عمل ، فاننا مأمورون بالاقتداء بهم ، وذلك من هداهم وهو أيضاً من شريعتنا ، فان الله أمرنا بذلك ، كما أمرنا بالاوصاف العامة التي تدخل فيها مفردات كثيرة .

* * *

فائدة : إذا أمرنا الله في كتابه بأمر كان آمراً بذلك وبكل أمر لا يتم إلا به . فالأمر مثلا بالصلاة أمر بالطهارة ، وستر العورة ، واجتناب النجاسة ، واستقبال القبلة ، وبجميع شروطها وأركانها ، وكذلك هو أمر بمعرفتها ، ومعرفة ما لا تتم إلا به ، وهذا من أعظم الادلة على وجوب طلب العلم ، فان المأمورات يتوقف تكميلها على معرفتها .

وكذلك إذا نهانا الله عن شيء كان نهياً عن كل وسيلة توصل اليه .

والأمر بالجهاد أمر به وبكل ما يتوقف عليه في كل زمان ومكان .

والأمر بتبليغ الشريعة أمر بكل ما يحصل به التبليغ ويتم ويكمل ويشمل ؛ ويدخل في هذا إيصال الأحكام الشرعية وتبليغها للناس بجميع المقربات الحادثة [٢] .

* * *

فائدة : قد أخبر الله في عدة آيات بهدايته الكفار على اختلاف مللهم ونحلهم وتوبته على كل محرم ، وأخبر في آيات أخر (أنه لا يهدي القوم الظالمين — لا يهدي القوم الفاسقين) فما الجمع بينهما .

فيقال قوله تعالى : (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا

يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم)هي الفاصلة بين من هداهم الله ومن لم يهدهم، فمن حقت عليهم كلمة العذاب؛ لعناهم. ولعلم الله أنهم لا يصلحون للهداية بحيث صار الظلم والفسق وصفاً لهم ملازماً غير قابل للزوال ويعلم ذلك بظاهر أحوالهم وعنادهم ومكابرتهم للحقائق، فهؤلاء يطبع الله على قلوبهم فلا يدخلها خير أبداً، والجرم جرمهم، فانهم رأوا سبيل الرشد فزهدوا فيه ورأوا سبيل الغي فرغبوا فيه واتخذوا الشياطين أولياء من دون الله.

* * *

فائدة : ورد في كثير من الآيات اضافة الأمور إلى قدرة الله ومشيئته وعموم خلقه، وفي آيات كثيرة اضافتها إلى عامليها وفاعليها، وهذه الآيات المتنوعه تنزل على الأصل العظيم المتفق بين سلف الأمة والذي دل عليه العقل والنقل، وهو أن جميع الامور واقعة بقضاء الله وقدره أعيانها وأوصافها وأفعالها وجميع ما حدث ويحدث لا يخرج شيء منه عن قضائه وقدره. ومع ذلك فقد جعل الله الحوادث تبعاً لأسبابها، ولارادة الفاعلين لها وقدرتهم عليها، فالآيات المتعددة المضافة إلى عموم قدره تدل على الأصل الأول، والآيات المتعددة المضافة الى فاعليها تدل على الاصل الثاني، ولا منافاة بينهما، فان أعمال العباد تقع بفعلهم

وارادتهم وقدرتهم، والله خالقهم وخالق قدرتهم وخالق السبب التام خالق للسبب، ومع ذلك فقد جعلهم في أفعالهم وتركهم مختارين غير مجبورين .

* * *

فائدة : يختم الله كثيراً من الآيات عندما يبين للعباد الاصول والاحكام النافعة : (لعلكم تعقلون) وهذا يدل على أمور :

منها أن الله يحب منا أن نعقل أحكامه وارشاداته وتعليماته : فنحفظها ونفهمها ونعقلها بقلوبنا ونؤيد هذا العقل ونثبته بالعمل بها .

ومنها أنه كما يحب منا ان نعقل هذا الحكم الذي بينه بياناً خاصاً، فانه يحب أن نعقل بقية ما أنزل علينا من الكتاب والحكمة، وأن نعقل آياته المسموعة وآياته المشهورة

ومنها أن في هذا أكبر دليل على أن معرفة ما أنزل الله الينا من أعظم ما يربي عقولنا ويجعلها عقولا تفهم الحقائق النافعة والضارة، وترجح هذه على هذه، ولا تميل بها الاهواء والاغراض والخيالات والخرافات الضارة المفسدة للعقول .

وإذا أردت معرفة مقادير عقول الخلق على الحقيقة، فانظر إلى عقول المهتدين بهداية القرآن والسنة، وإلى عقول المنحرفين عن ذلك تجد الفرق العظيم، ولا تحسبن العقل هو الذكاء وقوة

الفطنة والفصاحة اللفظية وكثرة القيل والقال ، وإنما العقل الصحيح أن يعقل العبد في قلبه الحقائق النافعة ، عقلاً يحيط بمعرفتها ويميز بينها وبين ضدها ، ويعرف الراجح من الأمور فيؤثره ، والمرجوح او الضار فيتركه ، وبعبارة أخرى مختصرة نقول : العقل هو الذي يعقل به العلوم النافعة ويعقل صاحبه ويمنعه من الأمور الضارة .

* * *

فائدة :ورد في القرآن آيات عامة عطف عليه بعض افرادها الداخلة فيها وذلك يدل على فضيلة المخصوص وآكديته، وأن له من المزايا ما أوجب النص عليه ؛ مثل قوله (من كان عدواً لله وملائكته وجبريل وميكائيل . فان الله عدو للكافرين تنزل الملائكة والروح فيها) وهو جبريل (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى – والذين يمسكون بالكتاب) دخل فيه الدين كله .ثم قال (وأقاموا الصلاة)ومثله(اتل ما أوحي اليك من الكتاب) أي اتبعه، ويدخل في ذلك جميع الشرائع ، ثم قال: (وأقم الصلاة) وذكر السبب في ذلك ، إلى غير ذلك من الآيات التي إذا تأملت المخصوص من العام علمت أن ذلك لشرفه وآكديته وما يترتب عليه من الثمرات الطيبة .

* * *

فائدة لطيفة : في عدة آيات من القرآن إذا ذكر الله الحكم لم ينص على نفس الحكم عليه ، بل يذكر من اسمائه الحسنى ما إذا

علم ذلك الأسم وعلمت آثاره ، علم أن ذلك الحكم من آثار ذلك الاسم ؛ وهذا إنهاض من الله لعباده أن يعرفوا أسماءه حق المعرفة ، وأن يعلموا أنها الأصل في الخلق والأمر ، وأن الخلق والأمر من آثار أسمائه الحسنى ، وذلك مثل قوله (فان فاءوا فان الله غفور رحيم ، وإن عزموا الطلاق فان الله سميع عليم) فيستفاد أن الفيئة يحبها الله وأنه يغفر لمن فاء ويرحمه ، وأن الطلاق كريه إلى الله ، وأما المؤلي إذا طلق فان الله تعالى سيجازيه على ما فعل من السبب ،وهو الايلاء ، والمسبب ، وهو ماترتب عليه ، ومثل هذا قوله تعالى «إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم » أي فإنكم إذا علمتم ذلك رفعتم عنه العقوبة المتعلقة بحق الله ، وهذا كثير ، وقد يصرح الله بالحكم ويعلله بذكر الاسماء الحسنى المناسبة له .

* * *

فائدة : قوله تعالى« كلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين» جمع الله فيهاأموراً كثيرة نافعة في الدين والبدن والحال والمآل .

فالأمر بالأكل والشرب يدل على الوجوب ، وأن العبد لا يحل له ترك ذلك شرعاً ، كما لا يتمكن من ذلك قدراً ما دام عقله معه .

وأن الأكل والشرب مع نية امتثال امر الله يكون عبادة .

وأن الأصل في جميع المأكولات والمشروبات الاباحة ، إلا ما نص الشارع على تحريمه لضرره لاطلاق ذلك .

وعلى أن كل أحد يأكل ما ينفعه ويناسبه ويليق به ويوافق لغناه وفقره ، ويوافق لصحته ومرضه ولعادته وعدمها ، لأنه حذف المأكول .

والآية ساقها الله لارشاد العباد إلى منافعهم ، وهي تدل على ذلك كله ، وعلى أن أصل صحة البدن تدبير الغذاء بأن يأكل ويشرب ما ينفعه ويقيم صحته وقوته .

وعلى الأمر بالاقتصاد في الغذاء والتدبير الحسن لأنه لما أمر بالأكل والشرب نهى عن السرف .

وعلى أن السرف منهي عنه ، وخصوصاً في الأطعمة والاشربة ، فان السرف يضر الدين والعقل والبدن والمال .

أما ضرره الديني ، فكل من ارتكب ما نهى الله ورسوله عنه فقد انجرح دينه ، وعليه أن يداوي هذا الجرح بالتوبة والرجوع .

وأما ضرره العقلي ، فان العقل يحمل صاحبه أن يفعل ما ينبغي ، ويوجب له أن يدبر حياته ومعاشه ، ولهذا كان حسن التدبير في المعاش من أبلغ مايدل على عقل صاحبه ، فمن

تعدى الطور النافع إلى طور الاسراف الضار ، فلا ريب أن ذلك لنقص عقله : فانه يستدل على نقص العقل بسوء التدبير .

وأما ضرره البدني ، فان من اسرف بكثرة المأكولات والمشروبات انضر بدنه واعتراه أمراض خطرة ، وكثير من الأمراض إنما تحدث بسبب الاسراف في الغذاء ، ثم إنه ينضر أيضاً من وجه آخر ، فان من عود بدنه شيئاً اعتاده ، فاذا عوده كثرة الأكل أو أكل الأطعمة المتنوعة فربما تعذرت في بعض الأحوال لفقر أو غيره ، وحينئذ يفقد البدن ما كان معتاداً له فتنحرف صحته .

وأما ضرره المالي فظاهر ، فان الاسراف يستدعي كثرة النفقات ، ولهذا قال تعالى : (ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً) أي تلام على ما فعلت ، لأنه في غير طريقه : (محسوراً) فارغ اليد ، وإخباره أنه لا يحب المسرفين ، دليل على أنه يحب المقتصدين ، ففي هذه الآية إثبات صفة المحبة لله وأنها تتعلق بما يحبه الله من الأشخاص والأعمال والأحوال كلها ، فسبحان من جعل كتابه كنوزاً للعلوم النافعة المتنوعة .

* * *

فائدة : ذكر الله في كتابه عدة آيات فيها وصف القلوب بالمرض وبالعمى وبالقسوة ، ويجعل الموانع عليها من الرين ،

والاكنة والحجاب ، وبموتها وبحيرتها .

فاعلم أن القلب يكون صحيحاً ويكون مريضاً ، ويجتمع فيه المرض والموانع من وصول الصحة ، وقد يكون ليناً وقد يكون قاسياً .

فأما القلب الصحيح فهو السليم من جميع هذه الآفات وهو القلب الذي صحت وقويت قوته العلمية ،وقوته العملية الارادية، وهو الذي عرف الحق فاتبعه بلا تردد ، وعرف الباطل واجتنبه بلا توقف ، فهذا هو القلب الصحيح الحي السليم ، وصاحبه من أولى النهى وأولي الحجى وأولي الألباب وأولي الأبصار ،والمخبت لله والمنيب اليه .

وأما القلب المريض فهوالذي انحرفت احدى قوتيه العلمية أو العملية أو كلتاهما .

فمرض الشبهات والشكوك الذي هو مرض المنافقين لما اختل علمهم وبقيت قلوبهم في شكوك واضطراب ولم تتوجه إلى الخير ، كان مرضها مهلكا .

ومرض الشهوات الذي هو ميل القلب الى المعاصي مخل بقوة القلب العملية ،فان القلب الصحيح لا يريد ولا يميل إلا إلى الخير أو إلى ما أباحه الله له ، فمتى رأيت القلب ميالاً إلى المعاصي سريع الانقياد لها ،فهو مريض وهو سريع الافتتان عند وجود أسباب

الفتنة ، كما قال تعالى (فيطمع الذي في قلبه مرض) .

وأما القلب القاسي ، فهو الذى لا يلين لمعرفة الحق ، وإن عرفه لا يلين للانقياد له ، فتأتيه المواعظ التي تلين الحديد وقلبه لا يتأثر بذلك ، اما لقسوته الأصلية أو لعقائد منحرفة اعتقدها ورسخ قلبه عليها وصعب عليه الانقياد للحق إذا خالفها ، وقد يجتمع الأمران .

وأما الران والاكنة والاغطية التي تكون على القلوب ، فانها من آثار كسب العبد وجرائمه ، فاذا أعرض عن الحق وعارض الحق ، وجاءه الحق فردّه وفتح الله له أبواب الرشد فأغلقها عن نفسه ، عاقبه الله بهذا العمل بأن سد عنه طرق الهداية التي كانت مفتوحة له ومتيسرة فتكبر عنها وردها ، فطبع على قلبه ، وختم عليه ، وأحاطت به الجرائم ورانت عليه الذنوب ، وغطت قلبه ، وجعلت بينه وبين الحق حجاباً ، وأقفلت القلب ، فهذه المعاني التي أكثر الله من ذكرها في كتابه ، إذا عرفت هذه الضوابط المذكورة في هذه الفائدة اتضحت لك معانيها وعرفت بذلك حكمة الله وعدله في عقوبة هذه القلوب ، وأن الله ولاهم ما تولوه لأنفسهم ورضوه لها .

* * *

فائدة : قوله تعالى (لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلاً) جمع الله فيها الحقوق الثلاثة : الحق

المختص بالله الذي لا يصلح لغيره، وهو العبادة في قوله (وتسبحوه بكرة وأصيلاً) والحق المختص بالرسول، وهو التوقير والتعزير، والحق المشترك، وهو الايمان بالله ورسوله .

* * *

فائدة : ذكر الله اليقين في مواضع كثيرة من القرآن في المحل العالي من الثناء، أخبر أن اليقين هو غاية الرسل لقوله (وليكون من الموقنين) وأنه بالصبر واليقين تنال الامامة في الدين وأن الآيات إنما ينتفع بها الانتفاع الكامل (الموقنون) فحقيقة اليقين هو العلم الثابت الراسخ التام المثمر للعمل القلبي والعمل البدني .

أما آثار اليقين العلمية فثلاث مراتب : علم اليقين . وهي العلوم الناتجة عن الأدلة والبراهين الصادقة الخبرية، كجميع علوم أهل اليقين الحاصلة عن خبر الله وخبر رسوله وأخبار الصادقين . وعين اليقين وهي مشاهدة المعلومات بالعين حقيقة، كما طلب الخليل ابراهيم من ربه أن يريه كيف يحيي الموتى، فأراه الله ذلك بعينه، وغرضه عليه السلام الانتقال من مرتبة علم اليقين إلى عين اليقين ؛ — وحق اليقين : وهى المعلومات التي تحقق بالذوق، كذوق القلب لطعم الايمان، والذوق باللسان للأشياء المحسة .

وأما آثاره القلبية، فسكون القلب وطمأنينته، كما قال

ابراهيم : (ولكن ليطمئن قلبي)وقال ﷺ :البر ما اطمأن اليه القلب . وفي لفظ : الصدق ما اطمأن اليه القلب . فان العبد إذا وصل إلى درجة اليقين في علومه اطمأن قلبه لعقائد الايمان كلها ، واطمأن قلبه لحقائق الإيمان وأحواله التي تدور على محبة الله وذكره ، وهما متلازمان ، قال تعالى (ألا بذكر الله تطمئن القلوب)فتسكن القلوب عند الاخبار فلا يبقى في القلب شك ولا ريب في كل خبر أخبر الله به في كتابه وعلى لسان رسوله ،بل يفرح بذلك مطمئناً عالماأن هذا أعظم فائدة حصلتها القلوب . ويطمئن عند الأوامر والنواهي مكملاً للمأمورات تاركاً للمنهيات راجياً ثواب الله واثقاً بوعده .

ويطمئن ايضاًعند المصائب والمكاره فيتلقاها بانشراح صدر واحتساب،ويعلم انها من عند اللهفيرضى ويسلم،فيخف عليه حملها، ويهون عليه ثقلها ، وقد علم بذلك آثارها البدنية ، فان الأعمال البدنية مبنية على أعمال القلوب ، فاهل اليقين هم أكمل الخلق في جميع صفات الكمال ، فان اليقين روح الأعمال والأخلاق حاملها ،والله هو الموفق الواهب له ولأسبابه .



فائدة :«الظن» ورد في القرآن على وجهين،وجه محمودووجه مذموم :

أما المحمود ففي كل مقام مدح وجزاء بالخير والثواب ، فانه بمعنى العلم واليقين مثل قوله تعالى (الذين يظنون انهم ملاقو ربهم) أي يتيقنون ذلك ، ومثل قوله (إني ظننت أني ملاق حسابيه) .

وأما المذموم ، ففي أغلب الآيات الواردة في الظن ، مثل (إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً ، وإن هم إلا يظنون) وهو كثير ، فهذا وما أشبهه فيمن قدم الظنون الكاذبة على الأخبار الصادقة ،لأن الظن في الأصل يحتمل الصدق والكذب ، ولكنه إذا ناقض الصدق قطعنا بكذبه .

* * *

فائدة :قوله تعالى (يمحق الله الربا ويربي الصدقات) وقوله (وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله ، وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله ، فأولئك هم المضعفون) تدل الآيتان على أن الزيادة من المحرمات ، وخصوصاً المكاسب المحرمة ؛ نقص في البركة ، وقد ينسحت المال بذاته عاجلاً أو آجلاً ، وعلى أن من أخرج شيئاً لله ، فان الله يزيده وينزل له البركة فان المال وإن نقص حساً بما يخرج منه لله ؛ فانه يزداد معنى ووصفاً ، وقد يَفتح للعبد بسبب ذلك أبواب من الرزق أو يدفع عن العبد من أسباب النقص ما كان بصدد أن يصيبه .



فائدة : الفرح ورد في القرآن محموداً مأموراً به في مثـــل **قوله** : (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير ممـــا يجمعون) فهذا فرح بالعلم والعمـل بالقرآن والاسلام ، وكذلك **قوله** :(فرحين بما آتاهم الله من فضله) فهذا فرح بثواب الله.

وورد منهياً عنه مذموماً ، مثل الفرح بالباطل وبالرياسات والدنيا المشغلة عن الدين في مثل قوله تعالى: (إنه لفرح فخور) وقوله عن قارون :(قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين) وما أشبه ذلك ، فصار الفرح تبعاً لما تعلق به ؛ إن تعلق بالخير وثمراته فهو محمود ، وإلا فهو مذموم .

* * *

فائدة : ورد «السعي» في القرآن في آيات كثيرة ،والمراد به الاهتام والجد في العمل ، مثل قوله : (ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيهـا وهو مؤمن ، فأولئك كان سعيهم مشكوراً) وقوله (إذا نودي للصلاة من يوم الجمعـة فاسعوا إلى ذكر الله) وقوله (إن سعيكم لشتى) وآيات كثيرة كلها بمعنى الاهتام للعمل ، إلا في قوله تعالى:(وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى . وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى) فالمراد بذلك العدْو ؛ وهو يتضمن **الأول** وزيادة .



فائدة : أمر الله بالصدق وأثنى على الصادقين،وذكر جزاء الصادقين في آيات كثيرة ، والمراد بالصدق أن يكون العبد صادقاً في عقيدته ، صادقاً في خلقه ، صادقاً في قوله وعمله ، فهو الذي يجيىء بالصدق في ظاهره وباطنه ،ويصدق بالصدق لمن جاء به ، كما قال تعالى : (والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون) ولما كان من هذا وصفه هو أعلى الخلق في كل حالة ، ذكر جزاءه أعلى الجزاء وأفضله فقال : (لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين ، ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون) وخواص أهل هذا الوصف هم الصديقون الذين ليس بعد درجة النبوة أعلى منهم . قال تعالى (والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون) والمراد الإيمان الكامل ، كما قال النبي ﷺ لما ذكر لأصحابه الغرف العالية التي يتراآها أهل الجنة من علوها وارتفاعها ونورها كالكوكب الدري في الأفق الشرقي أو الغربي ، فقالوا : يارسول الله تلك منازل الانبياء لا يبلغها غيرهم ؟ فقال « بلى ، والذي نفسي بيده ، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين ، وهؤلاء هم الهداة المهديون، كما قال تعالى : (وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون) » .

فالصديقية شجرة ،أصلها العلوم الصحيحة والعقائد السلفية المأخوذة من كتاب الله وسنة رسوله ، وقوامها وروحها الأخلاص الكامل لله ، والانابة اليه ، والرجوع اليه في جميع الأحوال ،

رغبة ورهبة ومحبة وتعظيماوخضوعاً وذلا لله ، وثمراتها الأخلاق الحميدة والاقوال السديدة ، والاعمال الصالحة ، والاحسان في عبادة الخالق ، والاحسان إلى المخلوقين بجميع وجوه الاحسان، وجهاد جميع أصناف المنحرفين ؛ فهي في الحقيقة القيام بالدين ظاهراً وباطناً وحالا ودعوة إلى الله ، والله هو الموفـــق وهو المعين لكل من استعان به صدقاً .

* * *

فائدة : قوله تعالى في المصطفين الذين أورثهم الله الكتاب: (فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابـــق بالخيرات) اشترك هؤلاء الثلاثة في اصل الايمان، وفي اختيار الله لهم من بين الخليقة وفي أنه منّ عليهم بالكتاب،وفي دخول الجنة ،وافترقوا في تكميل مراتب الأيمان ،وفي مقدار الاصطفاء من الله وميراث الكتاب ، وفي منازل الجنة ودرجاتها بحسب اوصافهم .

أما الظالم لنفسه ، فهو المؤمن الذي خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً ،وترك من واجبات الإيمان ما يزول معه الايمان بالكلية، وهذا القسم ينقسم إلى قسمين :

أحدهما : من يرد القيامة وقد كفر عنه السيئات كلها . إما بدعاء أو شفاعة أو آثار خيرية ينتفع بها في الدنيا أو عذب في

البرزخ بقدر ذنوبه ، ثم رفع عنه العقاب وعمل الثواب عمله، فهذا من أعلى هذا القسم وهو الظالم لنفسه .

القسم الثاني : من ورد القيامة وعليه سيئات ؛ فهذا توزن حسناته وسيئاته .ثم هم بعد هذا ثلاثة انواع :

أحدها : من ترجح حسناته على سيئاته فهذا لا يدخل النار، بل يدخل الجنة برحمة الله وبحسناته ، وهي من رحمة الله .

ثانيها : من تساوت حسناتهم وسيئاتهم فهؤلاء هم أصحاب الأعراف ، وهي موضع مرتفع بين الجنة والنار يكونون عليه ، وفيه ما شاء الله ، ثم بعد ذلك يدخلون الجنة ، كما وصف ذلك في القرآن .

ثالثها: من رجحت سيئاته على حسناته فهذا قد استحق دخول النار ، إلا أن يمنع من ذلك مانع ، من شفـــاعة الرسول له ، أو شفاعة أحد من أقاربه أو معارفه ممن يجعل الله لهم في القيامـــة شفاعة لعلو مقاماتهم على الله وكرامتهم عليه ؛ أو تدركه رحمة الله المحضة بلا واسطة وإلا فلا بـــد له من دخول النار يعذب فيها بقدر ذنوبه ، ثم مآله إلى الجنة ، ولا يبقى في النار أحد في قلبه أدنى أدنى مثقـــال حبة خردل من إيمان ، كما تواترت بذلك الأحاديث عن النبي ﷺ وأجمع عليه سلف الأمة وأئمتها .

واما المقتصد: فهو الذي أدى الواجبات وترك المحرمات، ولم يكثر من نوافل العبادات، وإذا صدر منه بعض الهفوات بادر إلى التوبة فعاد إلى مرتبته، فهؤلاء أهل اليمين، وأما من كان من أصحاب اليمين: (فسلام لك من أصحاب اليمين) فهؤلاء سلموا من عذاب البرزخ وعذاب النار وسلم الله لهم إيمانهم وأعمالهم فأدخلهم بها الجنة، كل على حسب مرتبته.

وأما السابق إلى الخيرات: فهو الذي كمل مراتب الاسلام وقام بمرتبة الاحسان، فعبد الله كأنه يراه، فان لم يكن يراه فانه يراه، وبذل ما استطاع من النفع لعباد الله، فكان قلبه ملآناً من محبة الله والنصح لعباد الله، فأدى الواجبات والمستحبات؛ وترك المحرمات والمكروهات وفضول المباحات المنقصة لدرجته، فهؤلاء هم صفوة الصفوة، وهم المقربون في جنات النعيم إلى الله، وهم أهل الفردوس الاعلى، فان الله كما أنه رحيم واسع الرحمة، فانه حكيم ينزل الأمور منازلها ويعطي كل أحد بحسب حاله ومقامه، فكما كانوا هم السابقين في الدنيا إلى كل خير، كانوا في الآخرة في أعلى المنازل، وكما تخيروا من الأعمال أحسنها، جعل الله لهم من الثواب أحسنه، ولهذا كانت عين التسنيم أعلى أشربة أهل الجنة؛ يشرب منها هؤلاء المقربون صرفا، وتمزج لأصحاب اليمين مزجا في بقية أشربة الجنة التي لا نقص فيها بوجه من الوجوه كما قال تعالى: (ومزاجه من تسنيم عينا يشرب

بها المقربون)، وهكذا بقية ألوان وأصناف نعيم الجنـــة لهؤلاء السابقين منه أعلاه وأكمله وأنفسه ، وإن كان ليس في نعيم الجنة دنى ولا نقص ولا كدر بوجه من الوجوه، بل كل من تنعم بأي نعيم من نعيمها لم يكن في قلبه شيء أعلى منه ، فان الله اعطاهم وأرضاهم ، وخيار هؤلاء الأنبياء على مراتبهم ، ثم الصـديقون على مراتبهم ، ولكل درجات مما عملوا فسبحان من فاوت بين عباده هذا التفاوت العظيم ، والله يختص برحمته من يشاء ،والله ذو الفضل العظيم .

* * *

فائدة: ورد في القرآن (الظلم) بمعنى الكفر والشرك الاكبر ، كما قال تعالى: (والكافرون هم الظالمون) ،وقال : (إن الشرك لظلم عظيم) ونحوهما . وورد كثيراً بمعنى الجرائم التي دون الشرك كما سبق في الظالم لنفسه ؛ ومثل: (ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجـــد الله غفوراً رحيما) . وورد أيضاً عدة آيات يدخل فيها هذا وهذا. ومثل هذا (الفسق) والمعصية والذنب والسيئة والجرم والخطيئة ونحوهـا ، فـانها وردت في القرآن لكل واحـد من هذه الثلاثة ، فتفسر في كل مقام بمـا يناسب ذلك المقام .

* * *

فائدة : قوله تعالى : (فأما من أعطى واتقى وصـدق بالحسنى

فسنيسره لليسرى) : جمعت السعادة وجميع الأسباب التي تنال بها السعادة ، وهي ثلاثة اشياء :

فعل المأمور .

واجتناب المحظور .

وتصديق خبر الله ورسوله .

فهذه الثلاثة يدخل فيها الدين كله، وذلك أن قوله: (أعطى) أي جميع ما أمر به من قول وعمل ونية ، (واتقى) جميع ما نهى عنه من كفر وفسوق وعصيان (وصدق بالحسنى) بما أخبر الله به ورسوله من الجزاء ، فصدق بالتوحيد وحقوقه وجزاء أهله ، فمن جمع ثلاثة الأمور يسره الله لليسرى ، أي لكل حالة فيها تيسير أموره وأحواله كلها .

ومقابل هذا قوله : (وأما من بخل) أي ترك ما أُمر به — ليس خاصاً بالنفقة — بل معنى البخل المنع ، فاذا منع الواجبات المتوجهة اليه ، القولية أو الفعلية أو المالية ، فقد بخل (واستغنى) أي رأى نفسه غير مفتقر إلى ربه ، وذلك عنوان الكبر والتجرؤ على محارم الله ، (وكذب بالحسنى) أي بلا إله إلا الله وحقوقها وجزاء المقيمين لها والتاركين لها (فسنيسره للعسرى) أي لكل حالة عسرة في معاشه ومعاده .

* * *

فائدة : خطابات القرآن للناس خبراً وأمراً ونهياً قسمان :
احدهما : وهو الاكثر جداً خطاب عام يخاطب به جميع الناس ويتعلق الخبر أو الحكم فيهم في حالة واحدة مثل الخبر عن الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، ومثل الأمر بالصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد والبر والصلة والعدل والنهي عن ضد ذلك ، وهذا لأن القرآن هداية وبيان للناس ، وهم مستوون في تعلق تلك الأحكام فيهم ما لم يمنع مانع عجز عن بعض الواجبات فيرتب عليه حكمه .

القسم الثاني : الخطاب العام من جهة ، الخاص من جهة اخرى ، وذلك كالخطاب المتعلق بالعبادات المعلقة على أوقاتها ، كالأمر بالصلوات الخمس لأوقاتها ، كقوله : (أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر) وبالإمساك عن المفطرات ، مثل قوله : (وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم اتموا الصيام إلى الليل) فمن جهة أنه موجه إلى جميع المكلفين فانه خطاب عام ، جميع أهل المشارق والمغارب مخاطبون بذلك ، ومن جهة أن لكل موضع حكماً بنفسه فانه معلوم أن الوقت الذي تطلع فيه الشمس على هؤلاء أو تغرب ، أو يطلع الفجر أو تزول الشمس غير الوقت الذي توجد فيه هذه الأمور عند الآخرين ، فكل يخاطب بحسب حاله وحسب

الموضع الذي فيه بلا ريب ، ونظير هـذا الامر باستقبال القبلة للصلاة موجه إلى جميع أهل الأرض،ومع ذلك فكل قطر ومحل فلهم جهة يتوصلون بها إلى الكعبة ، ولهذا صرح الله بهذا المعنى بقوله : (وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره) ،فالمقصود واحد والطرق والوسائل إلى هذا المقصود متباينـة وكل أحـد مأمور بطريقه الخـاص ، ونظير ذلك الاخبـارات بطلوع الشمس والقمر والكواكب وغروبهـا ولافرق بين الاخبـارات والاحكام بوجه ، ومن أن لكـل أهل قطرمطلعاً ومغرباً ، فهذه الخطابات في الاحكام والاخبارات في غاية الاحكام التي لا يتطرق اليها اعتراضـات المعترض ، ومن اعترض على شيء من ذلك عرف الناس أن ذلك من آثار جهله وحمقه ؛ وهذا واضح لا يحتاج إلى كل هذا ، يفهمه الذكي والبليد ، وهذا مقتضى كون القرآن عربياً ، أنزله الله بما يعقله العباد .

* * *

فائدة . ورد في القرآن عدة آيات فيها ذكر الخلود في النار على ذنوب وكبائر ليست بكفر مثل قوله تعـالى:(ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه

وأعد له عذاباً عظيما) - (ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدود يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين) (بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) فما الجمع بينها وبين النصوص المتواترة من الكتاب والسنة أنه لا يخلد في النار إلا الكفار ، وأن جميع المؤمنين مهما عملوا من المعاصي التي دون الكفر فانهم لا بد أن يخرجوا منها ؟

فهذه الآيات قد اتفق السلف على تأويلها وردها إلى هذا الاصل المجمع عليه بين سلف الامة ، وأحسن ما يقال فيها : إن ذكر الخلود على بعض الذنوب التي دون الشرك والكفر انها من باب ذكر السبب ، وأنها سبب الخلود في النار لشناعتها ، وأنها بذاتها توجب الخلود إذا لم يمنع من الخلود مانع ، ومعلوم بالضرورة من دين الاسلام أن الايمان مانع من الخلود ، فتنزل هذه النصوص على الأصل المشهور ، وهو أنه لا تتم الاحكام إلا بوجود شروطها وأسبابها وانتفاء موانعها ، وهذا واضح ولله الحمد، مع أن بعض الآيات المذكورة فيها ما يدل على ان الخطيئة المراد بها الكفر ، لأن قوله : (وأحاطت به خطيئته) دليل على ذلك ، لأن المعاصي التي دون الكفر لا تحيط بصاحبها ، بل لا بد أن يكون معه إيمان يمنع من احاطتها ، وكذلك قوله : (ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها)

فالمعصية تطلق على الكفر وعلى الكبائر وعلى الصغـائر ؛ ومن المعلوم أنه إذا دخل فيها الكفر زال الاشكال .

* * *

فائدة ;وردفيالقرآن آيات كثيرة فيها مضاعفة الحسنة بعشر أمثالها ، وورد أيضاً آيات أُخر فيهـا مضاعفة أكثر من ذلك ، فما وجه ذلك ؟

فيقال :

أما مضاعفة الحسنة بعشر أمثالها فلا بد منهافي كل عمل صالح كما قال تعالى :(من جاء بالحسنة فلهعشر امثالها)في عدة آيات.

وأما مضاعفة العمل أكثر من ذلك فله أسباب ، إما متعلقة بنفس العامل أو بالعمل ومزيتـه أو نتائجه وثمراته أو بزمانه أو مكانه .

فمن أعظم أسباب مضاعفة العمل إذا حقق العبد في عمله الاخلاص للمعبود والمتابعة للرسول فمضاعفة الأعمال تبع لمـــا يقوم بقلب العامل من قوة الاخلاص وقوة الأيمان .

و كذلك من الأسباب إذا كان العمل ناشئاً عنعقيدةصحيحة سلفية خالصة متلقاة من الكتاب والسنة ، فهذا العبد يكون

اليسير من عمله أبرك من الكثير من عمل من ليس كذلك .

ومن ذلك ترك ما تهواه النفوس من الفواحش ، مـع قوة الداعي اليها لبرهان الايمان والتوكل والاخلاص .

ومن أسباب المضاعفة أن يكون العمل فيـه نفع للمسلمين وغناء ، وذلك كالجهاد في سبيل الله ، الجهاد بالحجة والبرهان وبالسيف والسنان ، كما قال الله تعالى في نفقات أهل هذا الصنف : (مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبـة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم) .

ويدخل في هذا سلوك طريق التعليم والتعلم للعلوم الشرعية وما يعين عليها ، وفي الحديث : « من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة » .

ومن ذلك العمل والسعي في المشاريع الخيرية التي ينتفع بها المسلمون في دينهم ودنياهم ويتسلسل نفعها ، ومن ذلـك العمل الذي إذا عمله العبد كثر مشاركوه والمقتدون به فيه .

ومن ذلك إذا كان العمل له وقع عظيم ونفع كبير كانجـاء المضطرين ، وكشف كربات المكروبين ، فكم من عمل من هذا النوع هدم الله به ذنوب العبد كلها وأوصله به إلى رضوانه . وقصة

البغي التي سقت الكلب الذي كاد يموت من العطش شاهدة بذلك .

ومن ذلك علو مقام العامل عند الله ورفعة درجته ، كما قال تعالى : (يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن) ، وقوله قبلها : (ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحاً نؤتها أجرها مرتين) .

ومن ذلك الصدقة من كسب طيب وقوة اخلاص .

ومن ذلك العمل الواقع في زمان فاضل أو مكان فاضل .

ومن أهم وأعظم ما يضاعف به العمل تحقيق مقام الاحسان في القيام بعبودية الله ، وفي الحديث : « ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت منها » . فالصلاة والقراءة والذكر وغيرها من العبادات إذا كانت بقوة حضور قلب وإيمان كامل ، فلا ريب أن بينها وبين عبادة الغافل درجات تنقطع دونها أعناق المطي .

وأسباب مضاعفة الثواب كثيرة ، ولكن نبهنا على أصولها .

ومما هو كالمتفق عليه بين العلماء الربانيين أن الاتصاف في جميع الأوقات بقوة الاخلاص لله والنصح لعباد الله ، ومحبة الخير للمسلمين مع اللهج بذكر الله لا يلحقها شيء من الأعمال ، وأهلها سابقون لكل فضيلة وأجر وثواب ، وبقية الأعمال تبع

لها ، فأهل الاخلاص والاحسان والذكر هم السابقون أولئك المقربون في جنات النعيم .

★ ★ ★

فائدة : قد أمر الله في كتابه بالتفكر والتدبر والنظر والتبصر وغيرها من الطرق التي تنال بها العلوم، وأثنى على أهلها، وأخبر أن كتابه أنزل لهذه الحكم ، وأثنى على العلم واليقين ومدح أهلهما .

فاعلم أن الذي يجمع أشتات هذه الطرق وأنواعها وأجناسها ثلاثة طرق كلية :

أحدها : طريق الاخبارات الصادقة .

والثاني :طريق الحس .

والثالث : طريق العقل .

ووجه الحصر أن المعلومات إما أن تدرك بحاسة السمع أو البصر أو اللمس أو الذوق ؛ وإما أن تدرك بالعقل ، وإما أن تنال بالاخبار، وكل واحد من هذه الثلاثة قد يقارن الآخر ، وخصوصاً العقل والأخبار الصادقة فانهما لايتفارقان .

وقد يكون العلم ضرورياً بديهياً يضطر الانسان إلى علمه

والتصديق به من غير حاجة إلى زيادة نظر وتفكر. وقد يكون نظرياً يحتاج إلى ذلك .

ثم العلم بهذه الأمور مراتب متفاوتة .

وأعلى درجات العلم واليقين وأوضحها وأنفعها للعباد خبر الله وخبر رسله ، فانه لا أصدق من الله قيلا ، ولا أصدق منه حديثاً :(والله يقول الحق وهو يهدي السبيل) فكل ما قاله الله وقاله رسوله فهو الحق والصدق ، وماذا بعد الحق إلا الضلال ، وهو يهدي إلى كل دليل عقلي ونقلي ، وفي خبر الله وخبر رسله من البيان العظيم والتفصيلات لجميع أجناس العلوم النافعة ما لا تصل اليه علوم الخلائق كلهم أولهم وآخرهم .

وإذا أردت أن تعرف أن الحق الصحيح هو ما قاله الله وقاله رسوله ، وأن ما ناقضه ونافاه فهو باطل بلا ريب مبني على جهالات ومواد فاسدة .

فانظر **الى أصول الدين وقواعده** وأسسه كيف اتفقت عليها الأدلة النقلية والعقلية والحسية ،أنظر إلى توحيد الله ووجوب تفرده ، وإفراده بالوحدانية ، وتوحده بصفات الكمال ، كيف كانت الكتب السماوية مشحونة منها ، بل هي المقصود الأعظم منها ، وخصوصاً القرآن الذي هو من أوله إلى آخره يقرر هذا الأصل الذي هو أكبر الأصول وأعظمها .

وانظر كيف اتفقت جميع الرسل من أولهم إلى آخرهم ، وخصوصاً إمامهم وخاتمهم محمد ﷺ على تقرير توحيد الله وتفرده بالوحدانية . وسعة الصفات وعظمتها من سعة العلم والحكمة وعموم القدرة والارادة وشمول الحمد والملك والمجد والجلال والجمال والحسن والاحسان في أسمائه وصفاته وأفعاله ، ثم أنظر إلى هذا الأصل العظيم في قلوب سادات الخلق أولي الألباب الكاملة والعقول التامة كيف تجده أعظم من كل شيء ، وأقوى وأكبر من كل شيء ، وأوضح من كل شيء ، وانه مقدم عندهم على الحقائق كلها ، وأنهم يعلمونه علماً ضرورياً بديهياً قبل الأدلة النظرية ، ويعلمون أن كل ما عارضه فهو أبطل الباطل ، ثم انظر إلى كثرة البراهين المنقولة والمعقولة والمحسوسة الشاهدة لله بالوحدانية .

ففي كل شيء له آية تدل على أنه واحد [1]

فوجود جميع الأشياء في العالم العلوي والسفلي ، وبقاؤها

---

(١) البيت لابي العتاهية رحمه الله تعالى وقبله :

فيا عجبا كيف يعصى الاله ام كيف يجحده الجاحد
ولله فى كل تحريكة علينا وتسكينة شاهد

(انظر ديوانه طبعة المكتبة العربية بدمشق تحقيق الدكتور شكرى فيصل ص ١٠٤)

وما هي عليــه من الأوصاف المتنوعة ، كل ذلـــك من الأدلة والبراهين على وجود مبدعها ومعدهــا وممدها بكل مــا تحتاج اليه ، ومتى أنكر هذا فقد باهت وكبر ، وأنكر أجلى الامور وأعظم الحقائق .

ومن ههنا تعلم أن الماديـــين الملحدين أضل الخلق واجهلهم واعظمهم غروراً واغتراراً حيث اغتروا حين وقفوا على بعض علوم الكون الارضي المادي الطبيعي ؛ وقفت عقولهم القاصرة عندها واستولت عليهم الحيرة وتكبروا بمعارفهم الضئيلة وقالوا: نثبت ما وصلت اليه معارفنا وننفي ما سواه ، فتعرف بهذا أن نفيهم هذا جهل وباطل باتفاق العقلاء ، فان من نفى مـــا لا يعرفه فقد برهن على كذبه وافترائه(١) ، فكما ان من أثبت شيئاً بلا علم فهو ضال غاو ، فكذلك من نفى شيئاً بلا علم . وتعرف

(١)هذا الحكم فى غاية الجودة من المؤلف رحمه الله ، وهـــو من الصواب بالمكان الكبير وتشهد له كل هـــذه المكتشفات التي وصل اليها الانسان بواسطة العلم ، وكل يوم يقف فيه الانسان على جديد يزداد قناعة بأن ما كان يعلمه قليل ، مصداق قوله عز وجل (وما أوتيتم من العلم الا قليلا) . ومن هنا كان نفي المرء ما لا يعرفه كذبا، وهذا الكلام ينطبق على أصول القوم العلمية ، فلو قام انسان قبل اختراع الكهرباء او اكتشاف الميكروب ينفي كل ما لا يعرف وجوده لكان فى نظر العلماء الطبيعيين كاذبا وسخيفا .

ايضاً ان إثباتهم لعلوم الطبيعة التي عرفوها وانتهت اليها معارفهم أن هذا الاثبات منهم قاصر لم يصلوا الى غايته وحقيقته ، فلم يصلوا بذلك إلى خالق الطبيعة ومبدعها ، ولم يعرفوا المقصود من نظامها وسببيتها ؛ بل عرفوا ظاهراً منها وهم عن النافع غافلون ، فاثبتوا بعض السبب وعموا عن المقصود ، وهم في علمهم هذا حائرون ، لا تثبت لهم قدم على امر من الأمور ؛ ولا تثبت لهم نظرية صحيحة مستقيمه ، فهم دائماً في خلط وخبط وتناقض ، وكلما جاءهم من البراهين الحق ما يبطل قولهم قالوا: هذا من فلتات الطبيعة ، وكلما برز مبرز من فحولهم واذكيائهم ابتكر له طريقة غير طريقة إخوانه ؛ فصدق عليهم قوله تعالى : (بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في امر مريج) وقوله : (فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون) .

والمقصود أن هذا الأصل العظيم قد دلت عليه جميع الأدلة بأجناسها وأنواعها ، ودل عليه الشرع المحكم والقدر العام المنظم ، ولم يقدح فيه إلا هؤلاء الضلال الذين كان قدحهم فيه اسقط اعتبارهم وبرهن على فساد عقولهم .

وانظر إلى **الأصل الثاني** وهو إثبات الرسالة ، وأن الله قد أقام على صدق رسله من الآيات ما على مثله يؤمن البشر ، وخصوصاً محمد ﷺ ، فان آيات نبوته وأدلة رسالته وصدقه متنوعة : سيرته وأخلاقه وما جاء به من الدين القويم ، وحثه على كل خلق

كريم وعمل صالح ونفع واحسان وعدل ، ونهيه عن ضد ذلك ، وما جاء به من الوحي : الكتاب والسنة ، كله جملة وتفصيلا براهين على نبوته وصدقه مع ما أكرمه الله به من النصر العظيم وإظهار دينه على الأديان كلها ، ومن اجابة الدعوات وحلول أنواع البركات التي لا تعد أنواعها فضلا عن أفرادها ، وهذا بقطع النظر عن شهادة الكتب السابقة ، وعن عجز المعارضين له في مقامات التحدي كلها وعجزهم عن نصر باطلهم ، ولا يزال الباطل بين يدي ما جاء به الرسول مخذولاً راهقاً ، بحيث أن القائمين بما جاء به الرسول القائمين بمعرفة دينه يتحدون جميع أهل الأرض أن يأتوا بصلاح أوفلاح أو رقي حقيقي أو سعادة حقيقية بجميع وجوهها ، وأنه محال أن يتوصل إلى شيء من ذلك بغير ما جاء به الرسول [1] وأرشد اليه ودل الخلق عليه ، ولولا الجهل

---

(١) والدليل على صحة ما يقرره المؤلف رحمه الله الآن قائم فى الواقع الحرج للحضارة المعاصرة اليوم بشقيها الغربى والشرقى .

فلقد كانت الشيوعية أملا يراود كثيرا من المكتوين بنار الديمقراطية والرأسمالية .. ولكنهم بعد ان جربوها وجدوا انفسهم كما قيل : كالمستجير من الرمضاء بالنار وهكذا أفلست الرأسمالية ، وتفلس الآن الشيوعية ، ولم يبق هناك نظام يعرفه البشر قادرا على حل مشكلاته المستعصية سوى الاسلام (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كبيرا) .

بما جاء به الرسول والتعصبات الشديدة من الأعداء والمقاومات العنيفة ، واقامة الحواجز المتعددة العنيفة لمنع الجماهير والدهماء من رؤية الحق الصريح والدين الصحيح، لم يبق على وجه الأرض دين سوى دين محمد ﷺ لدعوته وارشاده وحثه على كل صلاح وإصلاح وخير ورشد ، ولكن مقاومات الأعداء ونصر القوة للباطل بالتمويهات والتزويرات وتقاعد أهل الدين عن القيام به ونصرته هي التي منعت أكثر الخلق من الوقوف على حقيقته[١].

ثم انظر إلى **الأصل الثالث** وهو اثبات المعاد والجزاء كيف اتفقت الكتب السماوية والرسل العظام وأتباعهم على اختلاف طبقاتهم وتباين اقطارهم وأزمانهم وأحوالهم على الايمان به والاعتراف التام به ،وكم أقام الله عليه من الأدلة النقلية والعقلية،

---

(١) ان هذا الكلام على ايجازه يصور لنا العقبات التي تقوم في وجه انتشار الاسلام .

ونود ان نشير الى ان المقاومة التي يلقاها الاسلام لم تلقها فكرة ولا عقيدة من قبل : انه يواجه عداء مستحكما وحقدا بغيضا ، ومخططات رهيبة تدعمها اكبر حضارة مادية عرفتها البشرية وقد سخرت لتنفيذها كل معطيات الحضارة من علم ولذة ومخترعات .. هذا وان بقاء الاسلام صامدا شامخا يتحدى كل هذه العوامل من اكبر الادلة على انه من عند الله .

وكذلك الحسية المشاهدة ما يدل أكبر دلالة عليه ، وكم أشهد عباده في هذه الدار أنموذجاً من الثواب والعقاب ، وأراهم حلول المثلات بالمكذبين ، وأنواع العقوبات الدنيوية بالمجرمين ؛ كما أراهم نجاة الرسل ، ومن تبعهم من المؤمنين وإكراههم في الدنيا قبل الآخرة ، وكم أبطل الله كل شبهة يقدح بها المكذبون بالمعاد ، كما أقام الادلة على إبطال الشبه الموجهة من المكذبين إلى توحيده وصدق رسله ، وبين سفههم وفساد عقولهم ، وأنه ليس لهم من المستندات على انكار ذلك إلا استبعادات مجردة ؛ وقياس قدرة رب العالمين على قدر المخلوقين .

والمقصود أن هذه الأصول العظيمة قد قامت البراهين القواطع عليها من كل وجه وبكل اعتبار ، وجميع الحقائق الصحيحة غيرها لم يقم على ثبوتها وعلمها عشر معشار ما قام على هذه الأصول من البراهين المتنوعة ؛ ففي هذا دليل على أن كل من أثبت معلوماً أو حقيقة من الحقائق بطريق عقلي أو خبري أو حسي ، ثم نفى مع ذلك واحداً من هذه الاصول الثلاثة التي هي اساس الدين ، فقد كابر عقله وحسه وعلمه ونادى على نفسه بالتناقض العظيم ، لان الطرق التي دلته على اثبات معلوماته هي وأضعافها وأضعاف أضعافها وما هو أقوى منها وأوضح قد دلت على التوحيد والرسالة والمعاد .

واعلم أن المعلومات بخبر الله وخبر رسله عامة يدخل فيها

الاخبار عن الله وعن ملائكته وعن الغيوب كلها وأمور الشرع والقدر ، وهي الأخبار المعصومة الصادقة التي يعلم كذب ما خالفها وبطلانه . ولنكتف بهذا الانموذج من الأمثلة ، والله اعلم .

وبعد هذا إخبار الصادقين عن المواضع والحوادث والوقائع التي شاهدوها ، وهذا النوع بحسب صدق المخبرين ، وتواتر خبرهم يفيد العلم القطعي : وكذلك اخبار الصادقين عن العلوم التي سمعوها والألفاظ التي نقلوها ، وأصدق الناقلين هنا حملة الشريعة المحمدية ، لشدة عنايتهم وكمال صدقهم وقوة دينهم[1] ، وانهم بالخصوص حفظوا عن الخطأ العمومي ، والإتفاق على غير الصواب .

ومن الامور التي تعلم بالعقل ان العقول الصحيحة التي لم تغير فطرتها ، ولم تفسد بالعقائد الفاسدة ، تعلم علماً يقيناً حسن

....

(١) وقد بلغ علماؤنا المسلمون في ذلك الذروة فى دقة التحرى واتقان التثبت ، بحيث لم يسبقهم فى هذا المجال احد من الامم الاخرى وأصبح علم الحديث ومصطلحه وعلومه مفخرة لامتنا لا نظير لها على الاطلاق .

وان ذلك ليثبت صدق تحقق الاية الكريمة : (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) . وهذا ما تفتقده الديانات الاخرى فى نصوصها الدينية .

التوحيد والاخلاص لله ، كما تعلم قبح الشرك ،وتعلم حسن الصدق والعدل والاحسان الى المخلوقين ، كما تعلم قبح ضده ، وتعلم وجوب شكر المنعم ووجوب بر الوالدين وصلة الاقارب ، والقيام بحق من له حق عليك ،وتستحسن كل صلاح واصلاح ، وتستقبح كل فساد وضرر ، ومن أشرف ما يعلم بالعقل أنه مركوز في العقول أن الكمال المطلق لله وحده ، وأن له الحكمة التامة في خلقه وشرعه ، وأنه لا يليق به أن يترك خلقه سدى لا يؤمرون ولا ينهون ولا يثابون ولا يعاقبون . ومن المعلوم بالحس مايدرك بالحواس كسمع الأصوات وإبصار الأعيان وهو من اتم المعارف ، فانه ليس الخبر كالمعاينة ، ومما يدرك بالحس ما يدرك بالشم ، كشم الروائح الطيبة والخبيثة ، وما يدرك باللمس ، كالحرارة والبرودة ، وما يدرك بتحليل الأشياء الوقوف على موادها وجواهرها وصفاتها كل هذا من مدركات الحس.

وبالجملة فطرق العلم إلى المعلومات كثيرة جداً ، وكلما كان الشيء اعظم ومعرفته اهم ، كانت الطرق الموصلة اليه اكثر واوضح واصح واقوى ؛ كما تقدمت الاشارة إلى التوحيد والرسالة والمعاد ، والله اعلم .

* * *

فائدة : لما ذكر الباري نعمته على العباد بتيسير الركوب للأنعام والفلك قال :(لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم

إذا استويتم عليه وتقولوا : (سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين) .

فهذا شامل لظهور الفلك ولظهور الانعام أي لتستقروا عليها . . . أي لولا تسخيره لنا ماسخر من الفلك والانعام وما كنا مطيقين لذلك وقادرين عليه ، ولكن من لطفه وكرمه تعالى سخرها وذللها ويسر اسبابها .

والمقصود من بيان هذا : ان الرب الموصوف بما ذكره من افاضة النعم على العباد هو الذي يستحق ان يعبد ويصلى له ويسجد [1]

---

(١) أنظر تفسيره « تيسير الكريم المنان » ١١٥/٧

فصل في ذكر امور ربطت بأسبابها

جعل الله الاستعداد للاعداء بكل مستطـــاع من القوة ، وأخذ الحذر منهم سبباً لحصول النصر والسلامــة من شرورهم ، شاهده قوله تعالى : (ياأيها الذين آمنوا خذوا حذركم) وقوله : (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) .

وجعل الله اليسر يتبع العسر ، والفرج عند اشتداد الكرب ، شاهده قوله تعالى : (إن مع العسر يسرا -- سيجعل الله بعد عسر يسرا — أم من يجيب المضطر إذا دعاه) .

وجعل الله الشكر سبباً للمزيد منها ومن غيرهـا ، وكفران النعم سبباً لزوالها ، شاهده قوله تعالى: (لئن شكرتم لأزيدنكم ، ولئن كفرتم إن عذابي لشديد) .

وجعل الله الصبر والتقوى سبباً للعواقب الحميـدة والمنازل الرفيعة ؛ شاهده قوله تعالى : (والعاقبة للمتقين – إنه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين) .

وجعل الله الجهاد سبباً للنصر وحصول الأغراض المطلوبة من الأعداء والوقاية من شرورهم شاهده قوله تعالى : (قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم . فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك ، وحرض المؤمنين ، عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا) .

وجعل الله لمحبته، التي هي أعلى ما ناله العباد ، أسباباً، أهمها وأعظمها متابعة رسوله محمد ﷺ في الأقوال والأفعال وسائر الأحوال ، قال تعالى : (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) ومن أسبابها ما ذكره بقوله :(والله يحب الصابرين – يحب المحسنين يحب المتقين – يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص) .

وجعل الله النظر إلى النعم والفضل الذي أعطيه العبد وغض النظر مما لم يعطه سببا للقناعة شاهده قوله تعالى : (يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي ، فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين) .

وجعل الله القيام بالعدل في الأمور كلها سببا لصلاح الأحوال، وضده سببا لفسادها واختلافها شاهده قوله تعالى : (والسماء رفعها ووضع الميزان أن لا تطغوا في الميزان ، وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان) .

وجعل الله كمال اخلاص العبد لربه سبباً يدفع به عنه المعاصي وأسبابها وأنواع الفتن ، شاهده قوله تعالى: (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين) .

وجعل الله قوة التوكل عليه مع الايمـان حصناً حصيناً يمنع العبد من تسلط الشيطان ؛ خصوصاً إذا انضم إلى ذلك الاكثار من ذكر الله والاستعاذة بالله من الشيطان ، شاهده قوله تعالى : (إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون)وقال: (قل أعوذ برب الفلق) و (قل أعوذ برب الناس) إلى آخرهما.

وجعل الله مفتاح الايمان واليقين التفكر في آيات الله المتلوة وآياته المشهودة والمقـــابلة بين الحق والباطل بحسن فهم وقوة بصيرة ، شاهده قوله تعالى (كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب) والأمر بالتفكر بالمخلوقات في عدة آيات ، وقوله (إن في ذلك لايات للمؤمنين) فهي سبب للايمان ، والايمان موجب للانتفاع بها .

وجعل الله القيام بأمور الدين سبباً لتيسير الأمور ، وعدم القيام بها سبباً للتعسير ، شاهده قوله تعالى (فأمـــا من اعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ،وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى)

وجعل الله العلم النافع سببا للرفعة في الدنيا والآخرة، شاهده قوله تعالى (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات)

وجعل الله كون العبد طيبا في عقيدته وخلقه وعمله سببا لدخول الجنة وللبشارة عند الموت شاهده قوله تعالى : (طبتم فادخلوها خالدين) وقوله (الذين تتوفاهم الملائكة طيبين)

وجعل الله مقابلة المسيء بالاحسان ، وحسن الخلق سببا يكون به العدو صديقا ، وتتمكن فيه صداقة الصديق ، دليله قوله تعالى (ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن ، فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم - فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك) وبذلك تحصل الراحة للعبد وتتيسر له كثير من أحواله

وجعل الله الانفاق في محله سببا للخلف العاجل والثواب الآجل ، شاهده قوله تعالى (وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين)

وجعل الله لرزقه ابوابا وأسبابا متنوعة ، فمتى انغلق عن العبد باب منها فلا يحزن ، فان الله يفتح له غيره ، وقد يكون أقوى منه وأحسن ، وقد يكون مثله ودونه ، شاهده قوله تعالى (وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته) وقوله (يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ، وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله) الآية

وجعل الله التحرز والبعد عن الموبقات المهلكة والحذر من وسائلها طريقا سهلاً هينا لتركها شاهده قوله تعالى (تلك حدود الله) أي محارمه (فلا تقربوها) أي لاتفعلوها ولاتحوموا حولها فمن رعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، وإذا قيل مثل هذه الآية (تلك حدود الله فلا تقربوها) كان المراد بالحدود المحارم، وأما إذا قيل (تلك حدود الله فلا تعتدوها) فهذه الحدود التي حددها الله للمباحات فعلى العبد أن لايتجاوزها ، لأنه اذا تجاوز المباح وقع في المحرم ، فافهم الفرق بين الأمرين.

وجعل الله السبب الوحيد القوي المثمر للثمرات الجليلة للدعوة إلى سبيله هو ماتضمنته هذه الآية : (أدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن) فالحكمة وضع الدعوة في موضعها ، ودعاية كل أحد بحسب مايليق بحاله ويناسبه ويكون أقرب لحصول المقصود منه . والموعظة الحسنة البالغة في الحسن مبلغا ، يصير لها من التأثير وسرعة الانقياد ما يناسب مقتضى الحال ، فالموعظة بيان الأحكام مع ذكر ما يقترن بها من الترغيب في ذكر مصالحها ومنافعها وخيراتها الحاملة عليها ، وذكر مايقترن بها من الترهيب على فاعل المحرمات أو تارك الواجبات من العقوبات والخسران والحسرات وحرمان الخير العاجل والآجل

(والمجادلة بالتي هي أحسن) بالعبارات الواضحة والبراهين البينة التي تحقق الحق وتبطل الباطل ، مع الرفق واللين وعدم المغاضبة والمشاتمة

وقد علم الله مع ذلك أن الناس ثلاثـــة أقسـام ؛ كل يدعى بالطريق التي تناسبه

القسم الاول : المنقادون الملتزمون الراغبون في الخـــير ، الراهبون من الشر ، فهؤلاء لما عندهم من الاستعداد لفعل المأمورات وترك المنهيات والاشتياق إلى الاعتقاد الصحيح ، فقط يكتفى ببيان الأمور الدينية لهم والتعليم المحض

والقسم الثاني : الذين عندهم غفلة وإعراض واشتغال بأمور صادة عن الحق ، فهؤلاء مع هذا التعليم يدعون بالموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب ، لأن النفوس لاتلتفت إلى منافعها ، ولا تترك أغراضها الصادة لها عن الحق علماً وعملا إلا مع البيان لما أن ترغب وترهب بذكر مايترتب على الحق من المنافع وعلى الباطل من المضار ، والموازنة بين الأمور النافعة والضارة

والقسم الثالث : المعارضون او المعاندون المكابرون المتصدون لمقاومة الحق ونصرة الباطل فهؤلاء لابد أن يسلك معهم طريق المجادلة بالتي هي أحسن بحسب مايليق بالمجادل والمجادل وبتلك المقالة وما يقترن بها ، وإذا أردت تطبيق هذه الأمور الثلاثة تماماً فانظر إلى دعوات الرسل صلوات الله وسلامه عليهم التي حكاها الله في كتابه مع أممهم المستجيبين ، والمعرضين والمعارضين ؛ تجدها محتوية على غاية الحسن في كل أحوالها

ثم انظر إلى دعوة سيدهم وإمامهم محمد ﷺ وما سلك من الطرق المتنوعة في دعاية الخلق عموماً وخصوصاً على اختلاف طبقاتهم ومنازلهم وبحسب أحوالهم ، وبحسب الأقوال والأحكام التي يدعو اليها ، تجده قد فاق في ذلك الأولين والآخرين ، والآثار أكبر دليل على قوة المؤثر

وجعل الله السبب لفصل الخصام المرضي للمتشاجرين المنصفين في جميع المقالات ، الذي هو خير في الحال وأحسن في المآل ؛ ردها إلى كتاب الله وسنة رسوله ؛ شاهده قوله تعالى (فان تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا . وجعل الله صلة ما أمر به أن يوصل من البر وصلة الأرحام والقيام بحق من له حق عليك سبباً تنال به مكارم الأخلاق ويتبوأ به المنازل العالية في جنات النعيم ، شاهده قوله تعالى (والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب) إلى (جنات عدن يدخلونها).

وجعل الله السوابق الحميدة للعبد وتعرفه لربه في حال الرخاء سبباً للنجاة من الشدائد وحصول أعظم الفوائد ، شاهده قوله تعالى : (فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون) وقول أهل الجنة فيها (إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين ، فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم ، إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم) .

وجعل الله لشرح الصدر ونعيمه وطمأنينته أسباباً متعددة: اليقين والايمان والاكثار من ذكر الله وقوة الانابة إليه، والقناعة بما اعطى من الرزق ، وحصول العلم النافع، وترك الذنوب والمبادرة بالتوبة مما وقع منها ، وشواهد هذا كثيرة ، منها قوله تعالى : (الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب ـ أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه — إن الأبرار لفي نعيم) وشمول هذا النعيم لنعيم القلوب في الدنيا ظاهر. (من عمل صالحاً من ذكر وأنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون — كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون، كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون).

وجعل الله ضرب الأمثال في كتابه طريقاً عظيما من طرق التعليم الذي تتبين وتتوضح به المطالب العالية والعقائد الصحيحة والفـــاسدة ، كما مثل كلمة التوحيد والعقيدة الحقة الصحيحة (بشجرة طيبة أصلها ثابت) في قلب المؤمن (وفرعها) من الأعمال والاخلاق (في السماء تؤتي أكلها) أي منافعها (كل حين باذن ربها) . ومثل ضد ذلك بالشجرة الخبيثة التي لا لها أصل ثابت ولا فرع نافع. ومثل المشرك بربه كالعبد الذي يتنازعه شركاء متشاكسون ، والموحد المخلص لله السالم من تعلقه بغيره .

وكذلك مثل الشرك والمشرك واتخاذه ولياً من دون الله يتعزز به وينتصر (كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً ، وإن أوهن

البيوت لبيت العنكبوت) . ومثل وحيه بمنزلة الغيث النافع ، وقلوب الخلق بمنزلة الأراضي الطيبة القابلة والخبيثة ، وبين ذلك ، وهي أمثلة محسوسة يوضح الله بها المطالب النافعة . وهو يقسم تعالى على أصول الدين التى يجب على الخلق الايمان بها : كالتوحيد والرسالة والمعاد وما يتفرع عنها ، وضرب الأمثال من تصريف الله الآيات لعباده بأعلى أساليب الكلام المؤثرة الموضحة للحقائق ، فتأمل إقسامات القرآن تجدها كذلك ، ولذلك حث الله عليها ومدح من يتفكر فيها ويعقلها ، فقال : (وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون) وفي الآية الأخرى (وما يعقلها إلا العالمون) .

فصل في ذكر حدود ألفاظ كثر مرورها في القرآن
أمراً بها أو نهياً عنها أو مدحاً لها أو ذماً لها

فالله تعالى أثنى على من عرف حدود ما أنزل على رسوله وذم من جهلها ؛ وهذه ألفاظ جليلة يتعين على طالب العلم معرفة حدودها ، ليعرف ما يدخل فيها وما يخرج منها ؛ وتتفق الألفاظ المأمور بها في كثير من الأمور ، وقد يكون بينها فروق ، وكذلك المنهيات ، وهذا من إحكام القرآن ، وأنه يصدق بعضه بعضاً (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) .

* * *

الاسلام والايمان : أمـا الاسلام فهو استسلام القلب لله وإنابته ، والقيام بالشرائع الظاهرة والباطنة ، وأما الايمان فهو التصديق التام والاعتراف بأصوله التي أمر الله بالايمان بها ، ولا يتم ذلك إلا بالقيام بأعمال القلوب وأعمـــال الجوارح . ولهذا سمى الله كثيراً من الشرائع الظاهرة والباطنة : ايماناً . وبعض الآيات يذكر أنها من لوازم الإيمان . فعلى هذا : **الإيمان** عند الإطلاق يدخل فيه الإسلام ، وكذلك بالعكس ؛ **وإذا**

جمع بين الإيمان والاسلام ، فسر الايمان بما في القلب من التصديق والاعتراف وما يتبع ذلك ، وفسر الإسلام بالقيام بعبودية الله كلها ، الظاهرة والباطنة .

الاحسان : قسمان ، إحسان في عبادة الخالق ، وهو بذل الجهد في اكمالها واتقانها والقيام بحقوقها الظـــاهرة والباطنة . وإحسان الى المخلوقين بايصال جميع ما يستطيعه العبد من نفع علمي وبدني ومالي للخلق ونصيحة دينية أو دنيوية ومساعدة وحض على الخير ؛ ولهذا كان المحسنون يتفاوتون تفاوتاً عظيما بحسب قيامهم بالاحسان المتنوع إلى الخلق ، برهم وفاجرهم ، حتى الحيوان البهيم ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « إن الله كتب الإحسان على كل شيء ... »[1]

* * *

الهدى والهداية : نوعان . هداية العلم والارشاد والتعليم ، وهداية التوفيق وجعل الهدى في القلب ، وهذان يطلبان من الله تعالى ، إما على وجه الاطلاق كقول العبد : اللهم اهدني ، أو اللهم إني أسألك الهدى ، وإما علىوجه التقييد بطريقها النافع، كقول المصلي : اهدنا الصراط المستقيم ومن حصلت له الهداية سمي مهتدياً ، وأعظم ماتحصل به الهداية القرآن ، ولهذا سماه الله هدى مطلقاً ، وقال (هدىللمتقين) وقال (إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم) ويشمل جميع الأمور الدينية والدنيوية النافعـــة .

---

(١) الحديث في مسلم رقم (١٩٥٥)

العلم واليقين : فالعلم هو تصور المعلومات على ماهي عليه ، ولهذا يقال : العلم ما قام عليه الدليل ، والعلم النافع ما كان مأخوذاً عن الرسول ، واليقين أخص من العلم بأمرين . **أحدهما** : أنه العلم الراسخ القوي الذي ليس عرضة للريب والشك والموانع ويكون علم يقين إذا ثبت بالخبر ، وعين يقين إذا شاهدته العين والبصر ، ولهذا يقال ليس الخبر كالمعاينة ، وحق يقين إذا ذاقه العبد وتحقق به .

الأمر الثاني : أن اليقين هو العلم الذي يحمل صاحبه على الطمأنينة بخبر الله ، والطمأنينة بذكر الله ، والصبر على المكاره والقوة في أمر الله ؛ والشجاعة القولية والفعلية ، والاستحلاء للطاعات وأن يهون على العبد في ذات الله المشقات وتحمل الكريهات ، فهذه الآثار الجميلة التي هي أعلى وأحلى من كل شيء من آثار اليقين .

* * *

الصبر : حبس النفس على المشقات طلباً لرضا الله ، وينقسم إلى ثلاثة أقسام : صبر على طاعة الله ، وخصوصاً الطاعات الشاقة ، حتى يؤديها على وجه الكمال ، وصبر عن معصية الله ، خصوصاً المعصية التي تدعو النفس اليها دعاء قويا ، حتى يجاهد نفسه فيتركها لله ، وصبر على أقدار الله المؤلمة ، خصوصا إذا عظمت المصيبة ، حتى لا يتسخطها ، وربما وصلت به الحال إلى الرضا عن الله .

* * *

الشكر لله : هو الاعتراف بنعم الله الظاهرة والباطنة ، العامة والخاصة ، والتحدث بها ، والاستعانة بها على طاعة المنعم دون معصيته ، ولا بد أن يقترن هذا بالخضوع للمنعم ومحبته ، فبهذه الأركان الخمسة يكون الشكر تاماً :

* * *

البر والتقوى لله : إذا أطلق أحدهما دخل فيه الآخر فانه اسم جامع للقيام بكل ما يحبه الله ورسوله ظاهراً وباطناً وترك ما يكرهه الله ورسوله ظاهراً وباطنا ، وإذا جمع بينهما نحو (وتعاونوا على البر والتقوى) فسر البر بالقيام بعقائد الإيمان وأخلاقه ؛ وأعمال البر كلها القاصرة والمتعدية وفسرت التقوى باتقاء ما يسخط الله من الكفر والفسوق والعصيان .

* * *

الصدق والكذب : الصدق هو استواء الظاهر والباطن على الاستقامة على الصراط المستقيم . فالصدق في العقائد أن تكون عقيدة العبد صادقة سلفية متلقاة عن كتاب الله وسنة رسوله وما كان عليه الصحابة رضي الله عنهم . والصدق في الأخلاق أن يكون القلب ملآناً من الإيمان والإخلاص والرغبة والنصيحة لعباد الله ومحبة الخير لهم . والصدق في الأقوال أن يكون قائلاً للصدق مصدقاً به ، والصدق في الأعمال الاجتهاد في تكميلها واتقانها ، والكذب ماناقض ذلك كله ولذلك كان الصدق والكذب مراتب ، ولا يزال العبد يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب

عند الله صديقاً ولا يزال العبد يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا .

* * *

العدل والظلم : العدل هو سلوك الطريق المستقيم المعتدل في العقائد والأخلاق والأقوال والأفعال كما يقال في الصدق ، والظلم ماناقض ذلك . ولهذا انقسم الظلم الى ثلاثة أقسام كلها منافية للعدل . الظلم في التوحيد بالإشراك بالله ؛ قال تعالى (ان الشرك لظلم عظيم) وظلم الخلق في دمائهم وأموالهم وأعراضهم وحقوقهم وظلم العبد نفسه فيما دون الشرك . ولا يتم للعبد العدل الكامل حتى يدع جميع هذه الأقسام ، ويتوب الى ربه مما وقع منه ويخرج من حق العباد اليهم . ولهذا كان القيام بالدين كله من العدل والقسط .

* * *

« العبادة والعبودية لله » اسم جامع لكل مايحبه الله ويرضاه من العقائد وأعمال القلوب وأعمال الجوارح [١] فكل مايقرب الى الله من الأفعال والتروك فهو عبادة . ولهذا كان تارك المعصية لله متعبداً متقرباً إلى ربه بذلك . ولا تتم العبادة إلا بالاخلاص « الاخلاص لله وحده » بأن يقصد العبد وجه الله ورضاه وثوابه في أعماله الظاهرة والباطنة ، وضده العمل للرياء والسمعة

---

(١) انظر لتوضيح ذلك رسالة «العبودية» لشيخ الاسلام ابن تيمية

ولأجل عرض الدنيا ، وميزان هذا قوله تعالى عن خيار الخلق: (يبتغون فضلا من ربهم ورضواناً) وقوله ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء مانوى » فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها ، فهجرته الى ماهاجر اليه . وجميع الأعمال على هذا النمط ، وقد يراد بالهجرة هنا الهجرة العامة التي قال فيها النبي ﷺ : « والمهـــاجر من هجر مانهى الله ورسوله عنه ».

* * *

« الخوف والخشية والخضوع والاخبات والوجل » معانيها متقاربة . فالخوف يمنع العبد عن محارم الله ، وتشاركه الخشية في ذلك وتزيد ان خوفه مقرون بمعرفة الله . واما الخضوع والاخبات والوجل : فانها تنشأ عن الخوف والخشية لله فيخضع العبد لله ويخبت الى ربه منيباً اليه بقلبه ويحدث له الوجل ، وأما الخشوع فهو حضور القلب وقت تلبسه بطاعة الله وسكون ظاهره وباطنه ، فهذا خشوع خاص. وأما الخشوع الدائم الذي هو وصف خواص المؤمنين فينشأ من كمال معرفـــة العبد بربه ومراقبته فيستولي ذلك على القلب كما تستولي المحبة .

القنوت : ورد في القرآن على أحد معنيين معنى خاص بمعنى الخشوع ، ومعنى عـام وهو قنوت المخلوقات كلها لخلق الله وتدبيره وتصريفه .

* * *

الذكر لله : الذي ورد في القرآن الأمر به والثناء على أهله وما رتب عليه من الجزاء يطلق على جميـــع الطاعات الظاهرة والباطنة ، القولية والفعلية ، فكلما تصوره القلب او أراده او فعله العبد او تكلم به مما يقرب إلى الله فهو ذكر لله ، والله تعالى شرع العبادات كلها لاقامة ذكره ، فهي ذكر لله ويطلق على ذكر الله باللسان بذكر اوصافه وأفعاله والثناء عليه بنعمه وتسبيحه وتكبيره وتحميده والتهليل والصلاة على النبي (ﷺ) . ومن ذكره ذكر أحكامه ، تعلمها وتعليمها ، ولهذا مجالس التعلم والتعليم يقال لها مجالس الذكر ، وأفضل أنواع الذكر ما تواطأ عليه القلب واللسان .

* * *

حدود الله : يراد بها ما حرمه ومنعه عباده ، فيقال فيها (تلك حدود الله فلا تقربوها) ويراد بها ما أباحه وأحله لعباده وقدره وفرضه ، فيقال فيها (تلك حدود الله فلا تعتدوها) أي لاتجاوزوا ما أحل الله إلى ماحـــرم الله ، ولا تتجاوزوا ماقدره الله للعباد إلى مايخالف تقديره .

* * *

الامانة : هي الأمور التي يؤتمن عليها العبد فيشمل الأمانة التي بينه وبين الله ، فانه ائتمن عبده على اقامة الواجبات وترك المحرمات ، فالقيام بذلك أداء للأمانة ومراعاة لها ، وترك بعض الواجبات وخصوصاً السرية التي لا يطلع عليها إلا الله أو التجرؤ على بعض المحرمات ترك للأمانة واتصاف بالخيانـة ؛ ويشمل أيضاً الأمانات التي بينك وبين الخلق في الدماء والأموال والحقوق فمن قام بها فقد أدى الأمانة وحفظها ، ومن تعدى فيها أو فرط أو خان فقد تجرأ على الخيانة .

* * *

العهد والعقد : يشمل العهود والعقود التي بين العبد وبين ربه فان الله عقد بينه وبين المكلفين عقـــداً وعاهدهم عهداً باقامة ماخلقوا له من عبادته والقيام بحقوقه ، فاقامة ذلك وفاء لهذا العقد والعهد وإهماله نقض للعهد والعقد والثقة وكذلك العهود والعقود التي بينه وبين الخلق يتعين الوفاء بها ، ويشمل ذلك عقود المعاملات كلها من دون استثناء .

* * *

الشجاعة والجبن والتهور : أثنى الله في كتابه على الشجاعة ومدح أهلها وأمر بها ، وذم الجبن والتهور ، فالشجاعة قوة القلب وثباته واقدامه على الأقوال والأفعال في موضع الاقدام بحكمة وحنكة ، فان أقدم عليها في حال لا يحل له الاقدام قبل لذلك تهور وجراءة وحمق وإلقاء بالنفس إلى التهلكة ، وأما

الجبن فهو ضد الشجاعة ضعف القلب وخوره ، ويتبع ذلك خور الأعمال والخوف مما لا يخاف وهيبة من لا يهاب ، فالشجاعة خلق فاضل جليل بين خلقين ذميمين رذيلين ، بين التهور الذي هو غلو وزيادة عن الحـــد ، وبين الجبن الذي هو تفريط وتقصير وضعف وخور ، ونظير ذلك .

* * *

القوام والبخل والتبذير : في تصريف الأموال بذلها فيما ينبغي من واجب ومستحب ونافع على الوجه الذي ينبغي ، يقال لذلك قوام واعتدال وتوسط واقتصاد ؛ فإن منع الواجبات فهو البخل وصاحبه بخيل ، وإن أسرف وزاد في النفقة عما ينبغي قيل لذلك إسراف وتبذير ، قال تعالى (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً) .

* * *

الاستقامة : هي لزوم الصراط المستقيم بأن يستقيم العبد على الإيمان بالله وأداء فرائضه وترك محارمه مداوماً لذلك تائباً مما أخل به من حقوقها ، ولهذا قال (فاستقيموا اليه واستغفروه) أي مما وقع منكم من الخلل في الاستقامة .



التوبة والاستغفار : أما التوبــة فهي الرجوع إلى الله مما يكرهه الله ظاهراً وباطناً إلى مايحبه الله ظاهراً وباطناً ندماً على مامضى وتركاً في الحال وعزماً على أن لا يعود ، والاستغفار طلب المغفرة من الله ، فان اقترن به توبــة فهو الاســتغفار الكامل الذي رتبت عليه المغفرة ، وإن لم تقترن به التوبه فهو دعاء من العبد لربه أن يغفر له ، فقد يجاب دعاؤه وقد لا يجاب وهو بنفسه عبادة من العبادات ، فهو دعاء عبادة ودعاء مسألة .

* * *

التوكل على الله والاستعانة به . بمعنى واحد هو اعتماد القلب على الله في جلب المنافع ودفع المضار الدينية والدنيوية الخاصة والعامة مع الثقة بالله في ذلك المطلوب .

* * *

المحبة لله والانابة الى الله : هي قوة الود لله لكماله ونعمه الظاهرة والباطنة ، وانجذاب القلب الى الله تألهاً ورغبة ورهبة في كل المطالب وطمأنينة القلب بذكره واللهج بدعائه والرجوع اليه في الأمور الدينية والدنيوية الجليلة والحقيرة فمن كان قلبه منيباً الى الله فهو محب لله ، والمنيب هو الأواه الرجــاع إلى الله الأواب اليه .

* * *

المعروف والمنكر : متقابلان ، فالمعروف اسم جامع لكل ما عرف حسنه شرعاً وعقلاً ، والمنكر ضده .

* * *

الخبيث والطيب: متقابلان ، فالطيب ما كان طيب الصفات كثير المنافع ، والخبيث بالعكس .

* * *

حسن الخلق وسوء الخلق : يكون مع الله ومع خلقه ، فحسن الخلق مع الله القيام بعبوديته ظاهراً وباطناً مع قوة محبته والطمأنينة اليه واللهج بذكره وقوة الثقة به ، ومع الخلق بذل الإحسان لهم ومنع الأذى عنهم واحتمال الأذى منهم ، وسوء الخلق بعكس ذلك كله .

* * *

الشرك والكفر : الكفر أعم من الشرك ، فمن جحد ماجاء به الرسول أو جحد بعضه بلا تأويل فهو الكافر من أي دين يكون ، سواء كان صاحبه معانداً أو جاهلاً ضالاً ، والشرك نوعان : شرك في ربوبيته كشرك الثنوية الذين يثبتون خالقاً مع الله ، وشرك في ألوهيته كشرك سائر المشركين الذين يعبدون الله ويعبدون غيره ، ويشركون بينه وبين المخلوقين ؛ ويسوونهم في الله في شيء من خصائص إلهيته . وقد يكون هذا الشرك أكبر جلياً ، كأن يصرف العبد نوعاً من أنواع العبادة لغير الله ، وقد يكون أصغر . كوسائل الشرك من الرياء والحلف بغير الله ونحو ذلك .



النفاق : هو أن يظهر الخير ويبطن الشر . وهو نوعـان : نفاق أكبر ، كأن يظهر الايمان بالله ورسوله وقلبـــه منطو على الكفر . ونفاق أصغر ، كالكذب وإخلاف المواعيد والفجور في الخصومة .

* * *

الكبر والتواضع : فسر النبي ﷺ الكبر بـأنه بطر الحق وغمط الناس ، يعني وضده التواضع للحق قبـــوله حيث كان ومع من كان ، ولين الجانب والتواضع للخلق .



فهرس الرسالة